الباب الثانى

فى أدبيات أدب الطفل

الفصل الأول

القرآن الكريم والطفولة

يمثل القرآن الكريم معجزة عقلية وبلاغية وتشريعية اختص بها الله تبارك وتعالى رسوله محمدا ، ﷺ ، لتكون حجة على الناس إلى يوم القيامة ، ويكون ذلك الكتاب العظيم دستور الإسلام الخالد ، لما توفر له من خصائص ومميزات ليست لكتاب سماوى سابق . ولقد قال الله تعالى [المائدة/ ٤٨] : ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لِمَا بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ .

ويهمنا هنا أن نشير إلى أن القرآن الكريم ، وإن لم يكن قد تخصصت فيه آيات كثيرة للحديث عن الطفل والطفولة صراحة – فإنه قد أوفى على هذا الغرض بالقدر من الآيات الذى تحدث فيه عما ينبغى أن يأخذ به الوالد ولده ، على ما جاء فى وصايا لقمان لابنه [سورة لقمان ، الآيات ١٢ – ١٩] (١) ، وما جاء به من آيات تحمل دلالات الحرص على الأبناء ، والشفقة عليهم ، والرحمة بهم ، ثم آيات أخرى تحدثنا عن الإطار الإسلامى الذى ينبغى أن يكون عليه سلوك الفرد المسلم ، كضرورة أن يكون رحيما عطوفا ، محافظا على ما ائتمن عليه ، صابرا على ما يلقى من مشقات الحياة وعنائها . كل ذلك وغيره يطبق فى مجال رعاية الطفل أو الابن ، ويراعى حق الرعاية ، كما يطبق فى أمور الجماعة ويراعى فى كافة مجالات الحياة .

يمكننا أولا أن نستعرض الآيات التى ورد فيها ذكر « الطفل » صراحة لنقف على مدى عناية الإسلام به ، من خلال معرفتنا لمضمون كل آية وصلتها بسياقها .

١ – يقول الله تعالى فى سورة غافر [٤٠/٦٧] : ﴿هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ، ثم يخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ، ولتبلغوا أجلا مسمى ، ولعلكم تعقلون﴾ .

---

(١) وسنأتى فيما بعد ، وسنقف أيضا على بعض مواطن أخرى شبيهة بذلك .

إن الآية واردة فى سياق خصص لبيان قدرة الله التى تتجلى فيما أبدع فى الكون ، وما أتقن من صنع ، وهو الذى أحسن كل شىء خلقه[1] . وهذه الارض مستقر الناس ، عليها يحيون ، وفى مناكبها يسعون ، وتلك السماء بناء ، وسقف مرفوع ، يبهر الناس بما يزدان به من ضياء وسراج ونجوم . وها أنتم أيها المخاطبون من بنى الإنسان « صوركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين »[2] ، فالله وحده الحَرِىّ بأن يدعى ، ويتضرع له ويتذلل ، وأن يسلم له الوجه فى إخلاص . وعلى ذكر من تصوير الله الإنسان على أحسن صورة ، وكما يقول الله فى غير ذلك الموضع : « هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء »[3] ﴿يأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك﴾[4] – على ذكر من ذلك الحديث عن التصوير الذى اختص به الله تعالى ، فهو ﴿الخالق البارئ المصور﴾[5] تقف بنا الآية السابعة والستون من سورة غافر عند مرحلة الطفولة ، لترينا أنها فترة خاصة وأنها إحدى حلقات سلسلة مراحل الحياة التى يمر بها المرء . ولئن كان الحديث هنا موجها إلى الكبار ، وكانت لدينا مجرد إشارة خاطفة إلى تلك المرحلة من مراحل حياة الإنسان – فإنه ستفاد من ذلك ضرورة الاتعاظ بما كان عليه أصل المرء ، وما سيئول إليه . وثمة معنى آخر يستفاد مترتبا على هذا المعنى السابق . وهو ضرورة الاعتناء بالطفل ، والرحمة به ، والإشفاق عليه من أن يناله ما لا يمكنه تحمله ببنيته الضعيفة ، وجسمه الضئيل ، والله يقول فى سورة الروم [الآية ٥٤] : ﴿الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة﴾ .

وتستمر الآيات بعدئذ ، فى سورة غافر لتحدثنا عن مقدرة الله على الإحياء والإماتة ، تأكيدا لما سبق فى الآية موضع الحديث ، ثم عما يكون من المكذبين بآيات الله من عدم الاعتراف بنعمة الله ، والإقرار بما تستوجب ، ثم تطلعنا على ما ينتهى إليه مآل هؤلاء يوم القيامة من عذاب أليم فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون .

---

(١) وانظر الآية ٧ من سورة السجدة .
(٢) الآية ٦٤ من سورة غافر .
(٣) آل عمران ، آية ٦ .
(٤) الانفطار ، آيات ٦ – ٨ .
(٥) الحشر آية ٢٤ .

٢ – ذكر « الطفل » أيضا مرادًا به جنس الطفولة ، وكما هو الشأن فى الآية السابقة ، فى الآية الحادية والثلاثين من سورة « النور » . « وكان ذلك بغرض استثناء « الطفل » و« الرجال » الذين لم يظهروا[1] على عورات النساء » ممن ينبغى ألا تبدى المرأة زينتا أمامهم . يقول تعالى :

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمورهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن أو آباء بعولتهن ، أو أبنائهن ، أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن ، أو بنى إخوانهن ، أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن ، أو التابعين غير أولى الإربة ، من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا إلى الله جميعا ، أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

والآية فى سياق الحديث عن الفضائل التى يحرص الإسلام على قيام المجتمع على أساس راسخ منها : وبخاصة ما يتصل بالأسرة وتكوينها ، وسلامة بنائها .

وسورة « النور » يركز الكثير من تشريعها حول صون شرف المرأة ، وحفظه من أن ينال من الألسنة ، أو يلغ فيه الوالغون ، لأنها هى الأم التى يترك إليها الكثير من شئون الطفل لتقوم به ، وهى التى تغرس فى نفسه القيم ، وترضعه لبان الأخلاق والسلوكيات التى اعتادت ونشأت عليها فى بيت أسرتها قبل بيت الزوجية ، وهى مؤتمنة من قبل العرف العام والمجتمع تمامًا كما أنها مؤتمنة من قبل الزوج على أن تربى الطفل كما ينبغى لأنها فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، كما جاء فى حديثه ﷺ .

وأنت لا شك مدرك أن فى استثناء « الطفل » الذى لم يظهر على عورات النساء من أن تحتجب عنه « الأم » أو « المرأة » بصفة عامة ، فلا تبدى له زينتها ولا يراها غير واضعة ثيابها – تيسيرا على « الأم » التى لا يمكن أن يفارقها طفلها أو صغيرها ، الذى هو فى احتياج دائم إلى حنانها ورعايتها وكذلك الشأن مع كل طفل ، ابنا كان أو غير ابن للمرأة ، فهو يلقى بما لا يلقى به غيره من الكبار ، ويقبل بما لا يقابل به كل واحد منهم ، لأنه فى حاجة لأن يشعر بالرفق وأثر الأمومة فى كل مكان .

---

(١) المراد بالظهور على عورات النساء إدراكها والتأثر بذلك الإدراك .

٣ – أما الآية التاسعة والخمسون من سورة « النور » ، والتى ذكر فيها الأطفال » – أى بصيغة الجمع – فإنها تطلب إلى الآباء أن يدفعوا أطفالهم عندما يبلغون الحلم إلى الاستئذان على آبائهم وأمهاتهم كما استأذن الذين من قبلهم ، وذلك فى ثلاث مرات « من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم » ...[1] .

يقول الله تعالى : ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته ، والله عليكم حكيم﴾ .

إنها التربية الإسلامية القومية ، المبرأة من الدنس ، والتنشئة المؤسسة على رعاية الحرمات ، وصيانة الأعراض ، والبعد عن مظنة الانزلاق إلى الخطيئة . وشتان بين أن يباح له كل شىء وأن يوجه ويَشْرَب الصفل مثل تلك القيم فور أن يناهز الحلم ، وبين أن يجهلها أو يتجاهلها ، حتى يخطئ أو يكاد ، ثم لا يستطاع تقويمه أو تعيير طباعه ، إلا من رحم الله ، لأن الطفل فى هذه المرحلة قابل للتهذيب .

ولئن كانت هذه هى الآيات الثلاث التى وردت فيها مادة « ط . ف . ل » فإن ثمة آيات ذكر فيها الولد والأولاد » و «الأبناء » :

١ – ففى الآية [٢٣٣] من سورة البقرة ، يقول الله : ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتمَّ الرَّضاعة ، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، لا تضارَّ والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك ...﴾ إنك ترى حرص القرآن على سلامة نمو الطفل ، فمن أجل ذلك يرشد إلى ضرورة الاهتمام بحقه وذلك بأن يكون زمن رضاعة الطفل عامين كاملين ، لمن أراد أن تكون رضاعته مكتملة غير منقوصة . ولابد أن يحوط الوالد طفله ومرضعته « والدته » برعايته ويتحق عليهما من ماله قدر استطاعته . ولم تقتصر التوصية على الوالد ، بل شملت الوارث ، فأوجبت عليه أن يقوم بمثل ما يقوم به المولود له من رزق الوالدة وولدها ، وكسوتهما ، غير مضار لهما .

٢ – ولشدة تعلق الرجل بابنه وقوة الرابطة التى تربط بينهما كان النعى على أهل النفاق والذين يعرفون وينكرون ، وعلى أهل الكتاب الذين يعرفون ما فيه من أحكام معرفة

---

(١) سورة النور الآية ٥٨ .

الأب لابنه ، لم يتجاهلونها كان نعيا قويا ، وكان الإزراء بهم عظيما ، ففى قوله تعالى [الأنعام ٦/٢٠] : ﴿الذين آتيناهم الكتاب ، يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ ، فليس هناك من يجهل ابنه ، فلا يعرفه ، ولا يميزه عن غيره بل إنه حريص على رؤيته دائما ، وعلى أن يخصه بكل خير ، ويقدم له كل عون يستطيع تقديمه ليرقى سلم الحياة صاعدا ومتقدما على غيره .

٣ – ولأحل ما سبق تقريره لنقف على ما ركزه الله فى طباع الآباء من أن يعملوا على جلب كل خير لأبنائهم – كل ذلك التعقيب آخر الآية الأولى من آيات المواريث فى سورة النساء[١] : « آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » . ويكون ذلك بمثابة زجر عن أن تسول لمورث نفسه أن يخص أحدا من ورثته – بمن فيهم الأبناء – ببعض ماله أو أن يحرم أحد لأنه لم يطلع على الغيب فيعلم أى هؤلاء سيكون أكثر نفعا له ، أو إفادة .

٤ – ومثل ذلك يمكن القول به فى آيتى سورة التغابن : ﴿يأيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾[٢] .

إنا لا يمكن أن نقول إن الإسلام يجعل الأولاد جميعا من أعداء الإنسان ، وأنهم شرمن الشر ، ومثلهم فى ذلك مثل الأموال ، إن ذلك لا يستساغ وقد حض الإسلام على التكاثر ، وتزوج الولود ، تماما كما لا يسوغ أن ننقص من قيمة المال فنجعله شرا . وكيف ذلك وقد أوجب الإسلام حفظه وعدم دفعه إلى السفهاء ، قال تعالى ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما﴾ [٣] فصحيح القول أن الأولاد ينبغى ألا يشغل بهم المرء عن العبادة والتقوى ، وألا يجر الاهتمام المبالغ فيه بهم إلى تعدى حدود الله ، وتخطى ما نهى الله عنه ، والاغترار بهم ، كما حَدَث فى القديم عندما قال كفار قريش للرسول ، ﷺ : ﴿نحن أكثر أموالا وأولادا ، وما نحن بمعذّبين﴾[٤] ، فكان رد الله تعالى عليهم : ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تُقَربكم عندنا زُلْفى ، إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعفِ بما عملوا ، وهم فى الغرفات آمنون﴾[٥] .

---

(١) سورة النور الآية ٥٨ .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ .
(٣) النساء ، الآية ٥ .
(٤) سبأ ، آية ٣٥ .
(٥) سبأ ، آية ٣٧ .

ومن هنا كان التوجيه للرسول – ﷺ – بشأن المنافقين حيث يقول من بيده الملك والكون ، سبحانه وتعالى ، فى سورة التوبة [الآية ٥٥] : ﴿فلا تعجبك أموالهم ، ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾ . ومن هنا أيضا كان التعقيب على قصة صاحب الجنتين[1] بما تؤول إليه الدنيا آخر الأمر من فناء وزوال – بقوله تعالى فى سورة الكهف [الآية ٤٦] : ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا﴾ .

فلقد شغل الأولاد آباءهم من المنافقين عن ذكر الله ، وألهتهم الأموال عن مراعاة حقوق الله وحقوق الناس ، فكانت الأموال والأولاد وبالا ، من أجل ذلك كانت آية التوبة تربأ بالرسول ﷺ ، وكل من يقرؤها أو يستمع إليها ، أن يؤخذ بما لهؤلاء المنافقين من الأموال ، لما حولتهم إلى غير طريق الحق ، وإلى غير سبيل المؤمنين ، والله يقول : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ [2] .

والله تعالى قد ذكر « البنين » ضمن مازين للناس حبه ، فقال : ﴿زين للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة ، والأنعام ، والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب﴾ .

فما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ورحمة الله ونعيم جناته يوم القيامة أعظم من كل متاع الحياة الدنيا المحبب للناس والمزين لهم . لكن ذلك لا يعنى أن ينصرف المسلم عن الحياة ، وعن الاعتناء بماله وبنيه ، والأخذ بنصيبه من الحياة ، دونما إفراط على النفس ، أو تهاون فى حقوق الله ، إذ المسلم الحق قوام بأمر الله ولطاعته دائما ، ومطبق لتعاليمه فى كل أمور حياته ، وهو الذى يعلم كيف يشكر الله على كل نعمة أسداها إليه ، والابن أو الطفل خير نعمة ينعم الله بها على المسلم ، ومن هنا فإن من الواجب عليه أن يؤدى شكرها ويعمل على توظيفها فيما هى له ، ولا يكون ذلك إلا برعاية ذلك الطفل ، والحنو عليه وتعهده بالتهذيب والتوجيه نحو ما ينفع أسرته ووطنه ، وما يجعله صالحا مؤمنا بالله ، عاملا بما يقضى به ذلك الإيمان ، حييا ، خيرا ، عَيّافًا

---

(١) انظر الآيات من ٣٢ إلى ٤٤ من سورة الكهف ، وتدور حول إحدى قصص القرآن الكريم الذى يمثل معينا ثريا لقصص الأطفال على ما سنشير إليه بعد .

(٢) المنافقون ، آية ٩ .

للهو الفارغ . وبذلك يأمن المرء من أن يكون قد فتنه أبناؤه ، لأنهم من غير هؤلاء الذين جعلتهم آية التغابن « عدوا » للآباء المؤمنين ، ينبغى الحذر منه ، وإذا استرجعنا الآية مرة أخرى عرفنا مدى الدقة فى التعبير بالجار « من » فيها الذى يدل على أن بعضا من الأبناء يمثلون وحدهم أعداء لآبائهم المؤمنين . وهذه هى طبيعة الحياة ، التى لابد فيها من تصارع الخير والشر ، وفتنة المؤمن ليعلم مدى قوة إيمانه .

إن هؤلاء الأبناء الصالحين الذين أعدهم آباؤهم كما ينبغى ، وكما أوجب الله تعالى هم الذين تصدق فيهم آية الفرقان[1] ، التى يدعو فيها عباد الرحمن ربهم قائلين ﴿ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرَّةَ أعين﴾ .

فالإنسان مفطور على حب ما يسعده من أزواجه وأبنائه ، ولئن كنا قد أطلنا بعض الشىء ، وعرجنا على ما قد يكون غير ذى صلة وثيقة بعالم الطفولة فى هذه النقطة ، وغيرها عند التعرض للفظتى « ابن » و« ولد » لصدق إطلاقهما على الابن فى غير مرحلة الطفولة – فإن الهدف من ذلك بيان أهمية تعهد النشء بالرعاية الصحيحة الصادقة منذ الصغر لما له من الأهمية القصوى من وجهة نظر القرآن ، على العكس مما قد يتبادر إلى الذهن من فهم ضيق لبعض آياته . وفى القرآن الكريم بعد ذلك كله وقبله آيات تعد أسسا تشريعية عامة تنظم حياة المرء المسلم وفقا لها . منها مثلا ما يحض على الحرص على الأمانات وصيانتها ، وضرورة وقاية النفس والأهل من شر نار الآخرة ، إلى غير ذلك . ورعاية الطفل وتعهده أفضل ما يكون التعهد هى من صميم حفظ الأمانات ورعايتها .

ويطول بنا المقام إذا ما ذهبنا لنستقى بعض هذه الأسس ، وكيفية تطبيقها على موضوعنا هذا . وقصارى القول إن القرآن الكريم قد أبان بجلاء دور الآباء فى تربية أبنائهم كما ينبغى ليؤدوا أعظم وظيفة ، ألا وهى استمرارية الحياة على النهج الذى يرضى الله تعالى .

لئن كان القرآن قد أجمل بعض الإجمال فى هذا الأمر فإن السنة القولية والفعلية لرسول الله ، ﷺ ، قد وضحت هذا الإجمال وفصلته ، وسترى ذلك فيما بعد من هذا الكتاب ، وسنضرب أمثلة ، من قصص قرآنى ، ثم نتتبع واقعا قصصيا حول آية وقصة :

---

(١) الآية رقم ٧٤ .

أولا : قصص القرآن مصدر خصب لأدب الطفل :

استعان القرآن بالقصص فى البرهنة على صدق الدعوة الإسلامية ، إذ كان يقص على كفار مكة وأضرابهم قصص الأمم البائدة التى أهلكها تكذيبها رسل الله إليهم كقوم نوح وعاد وثمود ولوط وبنى إسرائيل ، وما كان من أمرهم مع فرعون مصر أيام رسولهم موسى عليه السلام ، وما عيّرهم القرآن به من مواقفهم المخزية مع أنبياء الله إليهم ، وقتلهم إياهم ، إلى غير ذلك من قصص الأنبياء والمرسلين ، وثمة قصص أخرى من غير قصص الأنبياء والمرسلين أريد بها أيضًا عظة الناس ، وتقويم سلوكهم ، ومعالجة أدوائهم الاجتماعية والخلقية ، من ذلك قصة صاحب الجنتين ، التى سبقت الإشارة إلى أنها فى سورة الكهف ، وقصة أصحاب الجنة التى وردت فى سورة القلم ، وقصة أصحاب الأخدود ، المذكورة فى سورة البروج ، وقصة أصحاب القرية ، المذكورة فى سورة يس .

إن القصص القرآنى يتميز بطريقته الخاصة ، ونظام بنائه المتميز ، إنه لا يهتم التفصيلات الدقيقة لأحداث القصة ، ولا يهتم بتعيين أسماء أشخاصها . فكل ما يعنيه أن يخلص المرء من خلال تتبعه لخيوط القصة الرئيسية إلى العظة والعبرة ، أن تتكون لديه الرغبة فى أن يبتعد عن الشر الذى أودى بأصحابه ، وأن يحرص على فعل الخير ليكون من المفلحين .

وفى القرآن سورة « يوسف » التى تحدثت بإسهاب عما كان من حقد أخوته عليه هو وأخيه ، وما كان من ذهابهم بيوسف ، بعد تحيل على أبيهم للاستباق واللعب ، ثم التخطيط للعدوان ، ثم عودتهم إلى أبيهم دونه إلى آخر ما كان بينه وبين امرأة العزيز وما كان من سجنه ، ودعوته إلى الله داخل هذا السجن ، ثم خروجه منه ليصير على خزائن مصر ، يدير شئونها إبان سنوات سبع عصيبة ، ثم مجيء إخوته من فلسطين إلى مصر للامتيار والتزود بالطعام ، وإكرامه إياهم ، وهم لا يعرفون . ثم عودتهم إليه بأخيهم من أبيهم كما اشترط عليهم ليحتجزه لديه ، ثم مجيء أبيه وإخوته إليه فى مصر بعد أن عفا عنهم عندما اكتشفوا شخصيته . ويهمنا أن نشير إلى ما كان من حب يعقوب – عليه السلام – ليوسف وأخيه ، هذا الحب الذى أحنق عليه أبناءه الآخرين ليتقرر لدينا مدى تعلق الأب بابنه ، وبخاصة كون هذا الابن صغير السن بين أخوته ، فيكون حقيقا بمزيد عطف ، وهذا ما تقرره كتب التفسير بالنسبة لحب يعقوب ليوسف ، بالإضافة إلى ما كان يعقوب عليه السلام ينتظره لابنه من مستقبل طيب بشرت به رؤيته التى تحكيها لنا السورة فى أولها يقول تعالى : ﴿إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبًا

والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ .

وثمة قصص قرآنى نجد أنه يجتذب إليه الطفل ، وهو ذلك الذى يكون للحيوان دور بارز فيه ، على ما نجد فى قصة « عُزيْر » الذى مَرَ على قرية وهى خاوية على عروشها ، فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟ فأماته الله مائة عام ، ثم بعثه . قال : كم لبثتَ ؟ قال : لبثتُ يوما أو بعض يوم ! قال : بل لبِثْتَ مائة عام . فانظر إلى طعامك وشرابك لم يَتَسنَه[1] وانظر إلى حمارك ، ولنجعلك آيةً للناس ، وانظر إلى العظام كيف ننشزها[2] . ثم نكسوها لحما . فلما تبين له قال : « أعلم أن الله على كل شىء قدير »[3] ، ومن بعد ذلك نجد قصة الطيور الأربعة التى أُمرَ إبراهيم ، عليه السلام ، بتقطيعها إلى أجزاء لتفرق على الجبال ، ثم أمر بأن يدعوها إليه ، لتأتيه تسعى ، ليستبين له كيف أن الله قادر على أن يحيى الموتى . وكان قد قال : « ربِّ أرِنى كيف تحيى الموتى ، قال : أوَ لَمْ تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ اربعة من الطير « إلخ الآية[4] ولعله من غير المحتاج إليه أن نتوقف عند قصة سليمان ،[5] وقصة الهدهد الذى جاءه من « سبأ » فى بلاد اليمن « بنبأ يقين » ، فكان ذلك سلطانا مبينا حال دون أن يذبحه نبى الله سليمان ، الذى علم منطق الطير وأوتى من كل شىء ، وكان قد أقسم ليذبحنه أو ليأتينه الهدهد بسلطان مبين ، وذلك عندما تفقد الطير فلم يجده . ويكون الهدهد سفير النبى سليمان إلى بلقيس ملكة اليمن ، وبعد لأى تأتى بلقيس إلى سليمان النبى مسلمة طائعة ، بعد أن رأت قوته ، وعظم ملكه وصدق دعوته ، وكونه غير الملوك التى تعرف .

إن القرآن الكريم – كما رأيت – معين لا ينضب ، ففيه التشريع الذى يقنن لحقوق الطفل وتربيته وتنشئته كما ينبغى ، ولقد جاءت السنة فوضحته وفصلت مجمله ، على ما ستقف عليه من اقوال الرسول الأعظم ، وعلى شرح بعض ذلك فيما بعد . وفى القرآن أيضا – كما رأيت – زاد خلقى وتهذيبى متمثل فى قصص القرآن ، على اختلاف أشكاله ، يمكن للمدرس والمربى أن يمتاح منه قدر استطاعته ، معتمدًا على تفاسير القرآن ، غير

---

(١) لم يتغير ولم تصبه السنون .
(٢) أى نرفعها ملتصق ببعضها .
(٣) البقرة : آية ٢٥٩ .
(٤) البقرة : آية .
(٥) راجع سورة النمل آيات ١٦ – ٤٤ .

مغرق فى التطويل والتمطيط ، مما لا يناسب كثيرًا أطفال التاسعة أو العاشرة ، ولا باس أن يهتم فقط بخطوط القصة الرئيسة التى اهتم بها القرآن الكريم .. وحبذا أن يقرءوا الآيات التى تحتوى القصة ما أمكن ؛ فيجتمع على استقرار الفكرة فى الذهن طلاقة اللسان بقراءة القرآن الكريم الذى هو كتاب العربية الأول . وحبذا صياغة هذا القصص القرآنى فى قوالب لغوية مبسطة لمن هم دون التاسعة ، لينشأوا على صلة بالقرآن وحب القرآن . ولسوف نقف فيما بعد على تأثر الشاعر أحمد شوقى بقصص القرآن فى بعض قصصه الذى ساقه على ألسنة الحيوان . لكننا سنتناول ألوانا من العواطف الأبوية كما وردت بالقرآن للأطفال .

بين الأبوة والبنوة والقصص القرآنى :

وإذا كان « القرآن الكريم » معينا لا ينضب للفن القصصى المقدم للأطفال ، فإنه مصدر كريم لتغذية شخصية الطفل بالقيم النبيلة ، والفضائل الرفيعة ، كما يمنحهم فرصة التعلم وأخذ الخبرة ، ويوقفهم على مدى المعاناة التى يتحملها الآباء والأمهات فى سبيل الأبناء . وهذا واضح من قصص قرآنى موجه . مثل قصة « علاقة موسى بفرعون » وموقف الأمومة ، وإبراز عاطفتها المشبوبة تجاه ابنها الطفل ، وقد أرادت العناية الإلهية أن تخوض تلك الطفولة تجربة معايشة العدو اللدود فى بيته . وذلك ابتغاء التعرف على أحوال الحكام وتلقى الخبرة والتجربة ، واستعادة حوادث التاريخ ، ثم نلتقى فى إطار هذا القصص الموجه ، وذلك حينما يوقفنا القرآن الكريم على عاطفة الأبوة فى صياغة إنسانية يتمثل فيها الحرص على البنوة ، وذلك بتقديم النصائح التى تكمن فيها سعادة الابن ، وتتأكد صحته النفسية ، ويلوح من خلالها البناء السليم للكيان الإنسانى فى شخصية الابن الملتزم جانب هذه النصائح .. وهكذا نجد وصايا لقمان لأبنه ، صياغة تربوية لعاطفة كل الآباء تجه أبنائهم .. فإذا كانت عاطفة أم موسى ، تصاغ من الخوف واللهفة والحساسية المرهفة ، والحب الغامر . فإنها مع نصائح لقمان لابنه تصاغ من العقلانية ، وتشتق من الخبرة والتجربة فكلتا العاطفتين حريصة على الطفولة والبنوة . ولذلك نحاول استعراض العاطفتين فيما يلى .

١ – عاطفة أم موسى

فطر الله المرأة على حب طفلها والتضحية بكل غال فى سبيل سعادته ، وفى قصة موسى عليه السلام نلقى امه تتلهف على سلامته من يد فرعون الآثمة التى تمتد لتقتل أطفال بنى إسرائيل الأبرياء خوفا على ملكه .

قال تعالى : ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ، ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادّوه إليك ، وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ، ليكون لهم عدوًا وحزنًا . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغا . إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لأخته قصيّه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت : هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعملون﴾ : [من سورة القصص] الآيات من (٧ إلى ١٣) .

معانى المفردات :

اليم : البحر . والمراد به هنا النيل .

خاطئين : متعمدين للخطيئة . قرة عين لى ولك : فرحة ومسرة لى ولك .

أصبح فؤاد أم موسى فارغا : أى أصبح خاليا من العقل والتبصر .

تبدى به : تظهر أنه قد ضاع لها ولد .

ربطنا على قلبها : ثبتناها وصبرناها .

قصيه : اتبعى أثره ، وخذى خبره .

بصرت به عن جنب : نظرته من بعيد متظاهرة بأنها لا تقصده .

يكفلونه لكم : يتولون أمره ورعايته لأجلكم .

المعانى الاجمالية

وقذفنا فى قلب أم موسى بواسطة الإلهام أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه فى صندوق وألقيه فى بحر النيل ، ولا تخافى عيه الهلاك ولا تحزنى لفراقه فإنا سنرده إليك ونجعله رسولا نرسله إلى هذا الطاغية لننجى بنى إسرائيل على يديه .

فأخذه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدوا ومصدر حزن وبلاء وهلاك . إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا عاصين مشركين آثمين .

وقالت زوجة فرعون : هذا الغلام فرحة ومسرة لى ولك . لعلنا نسر به فيكون قرة عين لنا ، فلا تقتله يافرعون عسى أن ينفعنا فى الكبر ، أو نتبناه فنجعله نا ولدا تقر به عيوننا [وكانت لاتلد فاستوهبته من فرعون فوهبه لها] وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه .

وصار قلب أم موسى خاليا من ذكر كل شيء فى الدنيا إلا من ذكر موسى [وقيل شرد عقلها من فرط الجزع والغم] حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون ، حتى كادت أن تكشف أمره وتظهره أنه ابنها من شدة الوجد والحزن ، لولا أن ثبتناها و لهمناها الصبر لتكون من المصدقين بوعد الله برده إليها . وقالت أم موسى لأخته اتبعى أثره حتى تعلمى خبره ، وانظرى ماذا يفعلون به ، فأبصرته أخته عن بعد ، وهم لا يشعرون بأى شيء يراد بهم فغفوا حتى لم يحسوا أنها أخته ، لأنها كانت تمشى على ساحل النيل حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهى ترقبه مستخفية عنهم . ومنع الله موسى ن يقبل ثدى أية مرضعة من المرضعات اللاتى أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه التى قبل ثديها فرجعت أم موسى به إلى بيتها من يومها ، ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالتحف الثمينة وأمر لها بالهدايا : وذلك حتى يتحقق وعد الله بحفظه ورده إليها ولكن كثيرًا من الناس يشكون فى وعد الله الصادق القاطع .

الدراسة الأدبية والبلاغية :

تضمنت الآيات الكريمات عددا من الوجوه البلاغية والأدبية وهذه إشارة إلى بعضها :

١ – فى قوله تعالى : ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ إيثا_ لاستخدام الجملة الأسمية على الجملة الفعلية ، فلم يأت السياق يقول : سنرده ونجعله رسولا ، وذلك اعتناء بالبشرى التى حملتها الجملة ، كما أن الجملة الأسمية تفيد الثبوت والاستمرار .

٢ – فى قوله تعالى : ﴿ليكون لهم عدوا وحزنا﴾ .. اللام فى « ليكون » ليست لاما تفيد استقرار معنى النتيجة ، وليست لام السببية ، وإنما هى لام العاقبة والنتيجة لأنهم التقطوا موسى قاصدين أن يكون لهم قرة عين فكانت النتيجة أن صار لهم عدوا وحزنا .

٣ – فى قوله تعالى : ﴿لا تقتلوه﴾ خاطبت زوجة فرعون زوجها بصيغة الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيمًا له ليساعدها فيما تريد .

٤ – فى قوله تعالى : ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ استعارة ، شبه ماقذفه الله فى قلبها من الصبر بربط الشىء المنفلت خشية الضياع ، واستعار لفظ الربط للصبر ، وتثار هذه الوجوه ليستفيد منها التلميذ فى تصور القصة تصورا تربويا . ومما يفيد أيضًا فى هذا اللطائف التالية :

١ – لما قالت زوجة فرعون لزوجها قرة عين لى ولك » قال فرعون : أما لك فنعم ، وأما لى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسبب موسى وأهلك فرعون على يديه .

٢ – لما قالت أخت موسى : « هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » شكوا فى أمرها وقالوا : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ، فأحسنت التخلص منهم بقولها : نصحهم له وشفقتهم عليه بسبب رغبتهم فى سرور الملك ، ورجائهم فى نيل منفعته ، فأخلوا سبيلها .

وفى الآيات : منهج تربوى ، يقوم على الاحتفاظ برباطة الجأش ، والابتعاد عن العواطف ، وحسن التخلص حتى يمكن للطفل أن ينجو من الشرور ، التى لا تقاوم إلا بالعواطف المتزنة ، والسياسة الحكيمة ، وفيها – أيضا – غلبة عواطف الأمومة وعدم الثقة فى فقدانها ، إلا بتدخل الفعل العاقل الذى يهدى إليه الله .

٢ – عاطفة لقمان ووصاياه لابنه :

وها هو ذا القرآن يقص علينا كيف يربى الأب ابنه ، وينشئه التنشئة السليمة المبنية على أسس قوية راسخة . يقول القرآن على لسان لقمان : « وإذ قال لقمان لابنه » وهو يعظه : ﴿يابنى لاتشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلىّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله ، إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ، ولا تمش فى الأرض مرحا ، إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ .

[من سورة لقمان/ الآيات من ١٣ – ١٩]

المفردات القرآنية :

يعظه : ينصحه ويذكره ، والعظه والموعظة : النصح والإرشاد .

وهْنا : الوهن ، الضعف .

فصاله : الفصال : الفطام . وهو لفظ يستعمل فى الرضاع خاصة .

جاهداك : حرصا كل الحرص .

معروفًا : أى محسنا إليهما .

أناب : رجع ، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار .

ولا تصعر : لا تلو عنقك كبرا وافتخارا .

مرحًا : فرحا وبطرا وخيلاء .

مختال : متبختر فى مشيته .

اقصد : توسط واعتدل .

المعانى الإجمالية :

يقول لقمان لابنه واعظا ناصحًا مرشدًا :

يابنى كن عاقلا ولا تشرك بالله أحدا ، بشرا أو صنما ، أو ولدا ، إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضع للشيء فى غير موضعه ، فمن سَوّى بين الخالق والمخلوق وبين الإله والصنم فهو – بلا شك – أحمق الناس وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة .

يقول الله تعالى : لقد أمرنا الإنسان بالإحسان إلى والديه ، ولاسيما الوالدة ، فقد حملته جنينا فى بطنها ، وهى تزداد فى كل يوم ضعفا على ضعف من حين الحمل لحين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ازدادت به ثقلا وضعفا ، وجعل فطامه فى عامين ، ولذا أمره أن : اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان ، واشكر والديك على نعمة التربية ، فإنه إلىَّ المرجع والمآب ، فأجازى المحسن على إحسانه والمسيء على إساءته . وإن جاهدك والداك وبذلا أقصى ما فى وسعهما ليحملاك على الكفر والشرك بالله فلا تطعهما ، إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، وصاحبهما فى الحياة الدنيا بالمعروف وأظهر لهما المودة والإحسان إليهما ولو كانا مشركين – لأن كفرهما بالله لا يستدعى ضياع المتاعب التى تحملاها لتربية الولد ونكران جميلهما . واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح وسيكون مرجع الخلائق جميعا إلى الله فيحاسبهم على أعمالهم .

ثم تعود بنا الآيات إلى وصايا لقمان لابنه :

ياولدى إن الخطيئة والمعصية مهما كانت حتى ولو كانت مثل حبة الخردل فى الصغر ، فتكن تلك السيئة – مع كونها فى أقصى غايات الصغر – فى أخفى مكان وأحرزه ، كجوف صخرة صماء ، أو فى أعلى مكان فى السماء أو الأرض – سيحضرها الله سبحانه ويحاسب عليها ، فإن الله لطيف عليم فلا تخفى عليه الأشياء . وإن دقت ولطفت وتضاءلت فهو خبير بدبيب النمل فى ظلمة الليل . يابنى حافظ على الصلاة فى أوقاتها بخشوعها ، وآدابها ، وأمر الناس بكل خير وفضيلة ، وانههم عن كل شر ورذيلة ، واصبر على المحن والبلايا ، لأن الداعى معرض لإيصال الأذى إليه ، فإن الصبر على أذى الناس من عزم الأمور . ولاتمل خدك للناس كبرا عليهم وإعجابًا ، وتحقيرا لهم ، ولاتمش فى الأرض متكبرًا لأن الله يكره المتكبر الذى يرى العظمة لنفسه ، ويتكبر على عباد الله ويفتخر على غيره ، وتوسط فى مشيتك ، واعتدل فيها بين الإسراع والبطء ولا تبالغ فى الكلام ولا ترفع صوتك فيما لافائدة فيه ، فإن أقبح الأصوات لصوت الحمير . وبهذا يمكن ضرب هذه النماذج من أدب القرآن الكريم وتجسيدها أمام الأطفال لتكون لهم مصدرا للتذوق الصحيح والعبرة المستفادة ، والخبرة المتوخاة ويمكن إجمال ما يحققه الأدب الإلهى الذى طوفنا به مع عواطف الآباء والأمهات كما صورها القرآن الكريم فيما يلى :

١ – ربط الطفل بالقيم الفاضلة وتربية ذوقه تربية تقوم على الحس المصفى ، والتوجه الصحيح . والتأكيد على علاقته بربه ، وخالقه ، وتنمية فضائله .

٢ – قد يتغلغل هذا الأدب الإلهى ، فى النسيج اللغوى للطفل ، فيشع أسلوبه بالضوء ، وتتوهج أفكاره بالضياء ، وتفيض تصوراته وأخيلته بأعمق وأصدق معانى الخير والحق والجمال .. ومن ثم يكسب الوطن مواطنا جيدًا ، والحق مدافعًا صلبا والدين مؤمنا سمحا ، ويضيف إلى الإيمان القلبى حب الفن ، وحب الحياة .

٣ – إن حوارا يتم بين الطفل وهذا الأدب العظيم إنما هو تنمية وتربية إنسانية شاملة .

ثانيا : نزول الوحى ، ورؤية « أدب الطفل » :

ينبغى تعريف الأطفال ، عن مكانة العلم ، وعن قيمته فى الإسلام وهذا بدوره ، يجعلنا مسئولين ، أمام أطفالنا ، عن التفسير العلمى الصحيح للظواهر ، التى ربطت ، بين الأرض ، والسماء ، مثل : « الإسراء ، والمعراج » و« نزول الوحى » ، وعام الفيل ،

و« الطير الأبابيل » ، وأن يقوم هذا التفسير على جوانب علمية ، تستسيغها عقول أطفالنا . ومن ثم ينبغى النظر إلى الإسلام على أنه دين سماوى ، يحض على العلم ، والمعرفة ؛ ولأنه دين يبدأ بالدعوة ، إلى العلم ، واكتساب المعارف ، وتستمر رسالته ووظيفته ، ومنهجه ، ويمضى فى كل مسارات الحياة ، مع العلم والمعرفة يقول تعالى : ﴿وقل رب زدنى علما﴾ . وفى مفتتح التنزيل القرآنى يتوجه الله سبحانه وتعالى إلى الناس كافة ، عن طريق الوحى الذى نزل على « محمد » ﷺ ، فتنزل الآيات : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ..﴾ .

ولقد أكد القرآن الكريم على أن العلماء ، هم أكثر الناس إكبارا ، وإعزازا ، وخشية من الله سبحانه ، وتعالى ، وذلك حيث يقول : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ والعلماء فى المجتمع الإسلامى ، هم ورثة الأنبياء ؛ لأنهم يتدبرون أمر الحياة ، والمصير ، وعلاقة المخلوق بخالقه ، وذلك بمنهج العقل والإيمان ، والتوجيه العقلى السديد . ولهذا كانت الدعوة فى المجتمع المؤمن ، إلى العلم ؛ لأن من أقبل على العلم الصحيح النافى للخرافة وحصل منه ما حصل ، وحفظ أمانة هذا العلم ، فى نفسه فوضع لها المنهج القويم ، وسدد خطاها فى الطريق المستقيم ، وفى أهله وذلك رفع شأنهم ، والأخذ بيدهم ، فى مدارج الرقى والتقدم وعموما فقد عمل به ، وأرشد إليه ، كان من المقربين ، واستحق أن يقال له : إنه من ورثة الأنبياء .. وهكذا كان سبب نزول الوحى ، فقد أرشدنا إلى العلم ، وقيمته ، وأثره فى الرقى . فالمشاهد أن الأمم لا ترقى إلا برقى العلم ، وبدور العلماء فى المجتمع .. والأمم التى سبقتنا إلى التقدم .. قد بنت هذا التقدم على أكتاف علمائها ، الذين يتأملون ، وينحرون ويتجردون عن الهوى ، ويبحثون فى كل ما يفيد البشرية . ولقد حدثنا تاريخ الإسلام ، والمسلمين ، بأن دنيا المسلمين قد عزت ، وارتقت ، وسمت ، حينما احتل العلم مكانة سامية بين جماعة المسلمين ، وذلك بأثر من مكانة العلم فى الإسلام .. فما أحوجنا الآن يا أطفالنا ، وأطفال المسلمين ، والعالم كله ، إلى أن نرجع إلى أول آية قرآنية كريمة ، نزل بها الوحى الأمين ، على محمد رسول الله ، ﷺ ؛ لنقف على رؤية علمية لمعرفة سبب نزول أول آية كريمة وهى : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم﴾ .

ويمكن اعتبار « قصة وآية » التى قدمها كل من : « وصفى آل وصفى ، إبراهيم يونس » ، عن نزول الوحى ، نموذجا يحتذى عند كتابة « أدب الطفل » الذى يستمد

مادته ، ومصادر إبداعه ، من القرآن الكريم ، وآياته ذات الأسباب الواقعية التى قد تحتاج منا – أيضا – أن نقدم لأطفالنا تفسيرا علميا مقنعا عن جوهر ، وعقلانية سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، ولنذكر بعض الأمثلة من هذا الأدب الإبداعى عن « نزول الوحى » حول : « قصة وآية »[1] .

والآية هى : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾ . صدق الله العظيم

وتستمر القصة حول هذه الآية ، فى تتابع ؛ لتوضيح كيف استقبل « الرسول محمد » نزول الوحى ، وقبل نزول الوحى ، وللحديث عن الآية لابد من حديث موصول عن مكة ، والبيئة التى استقبلت ميلاد « محمد » ثم اشتهاره بين قومه بالترفع عن الآثام ، وشهرته بالأمين ، ومروره بمراحل ، هيأته للرسالة ولنزول الوحى عليه ، وإليكم ما كتب عن هذا ويصلح نموذجا لهذه الكتابات التاريخية الدينية تفسيرا ، وقصا ، وتوضيحا لأسباب النزول ، وذلك عندما نتوجه بها إلى الأطفال ، أو إلى معلمى رياض الأطفال .

هَذِه الآياتُ الرَّائعةُ .. كانت أوَّلَ ما نَزَلَ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ .. وكانتْ بِدايةَ الحَضَارَة الإسْلامِيَّةِ ، التِى مَلأَتِ الأرْضَ حقًّا .. وعَدْلا .. وعلما .. وتسامحا، وتكريما للعلم وتعلمه .

لِنُزُولِ هَذِه الآياتِ حِكَايةٌ .. ولَها مَعْنًى عَظيمٌ .. تُرَى .. ما حِكايَتُها ؟ ومَا مَعْناها ؟

فى « مَكَّةَ » المُكرَّمةِ .. مُنْذُ أربعةِ آلافِ عامٍ تقريبًا .. بنَى سَيِّدُنا إبراهِيمُ » بيتَ اللهِ الحَرام .. وساعَدَهُ فى إقامةِ البَيْتِ المُقدَّسِ الذى نُسَميه « الكعبةَ » ، ولدُهُ .. سَيِّدُنا إسْمَاعِيلُ » ..

ومنذُ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرنًا تقريبًا وُلِدَ محمدٌ ﷺ بمكَة .. وقبلَ أنْ يُولَدَ تُوُفِّى أبوهُ « عبدُ الله » .. وتُوفِّيَتْ أُمُّهُ وهُوَ طفلٌ صغيرٌ ..

نشأ مُحمدٌ اليتيمُ فى رعايةِ جَدِّهِ « عَبدِ المُطَّلِبِ » ، وتُوُفِّى جَدُّهُ بعدَ قَليلٍ فتولَّى رعايَتَهُ عمُّهُ « أبو طالب » ..

---

(١) نزول الوحى : إبراهيم يونس بالاشتراك – دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٩١ .

وصار مُحمدٌ فتًى فاشْتَغَلَ بَرِعْى العَنَمِ .. فلما كَبِرَ وأصبحَ شابًّا ، عَمِلَ بالتجارةِ عِنْدَ سيِّدةٍ فاضلةٍ ، هِيَ السَّيِّدةُ « خَدِيجةُ بِنْتُ خُوَيْلِد » ..

* * *

وهكذا استقبل « محمدﷺ » مسئوليات الحياة ، والدعوة إلى الدين الجديد ، بدون مساندة من أب ، أو أم ، بل نشأ يتيما ، راعيا للغنم ، وقد هيأته ، تلك النشأة ، ليكون قادرا على تحمل تبعاتها .

كانت خديجةُ سيِّدة ثريَّةً ، ذاتَ حَسَبٍ ونَسَبٍ فى قبيلةِ « قُرَيْش » .

عَرَفَتِ السَّيِّدةُ خديجةُ فى مُحمدٍ الصِّدقَ والإخلاصَ ، فرَغِبَتْ فى أنْ تتزوَّجَه ..

وتزوَّجَ مُحمدٌ السَّيِّدةَ خديجةَ ، فلَم تَشْهَدْ مكةُ مِثلهُما فى المَودَّةِ ..

ومَضَتِ الأيامُ والسعادةُ تغمُرُ الزَّوْجَيْنِ الشَّرِيفيْنِ .. والبركةُ تُحِيطُ بِهِمَا ، فيزدَادُ مالُ خَدِيجةَ بالرِّبح الحلالِ ..

ومِنَ الرِّبح الحلالِ يُنفقُ مُحمدٌ ، فيُعِينُ المُحتاجِينَ ويُعطِى العاجِزين ..

* * *

لقد تزوج « محمد » من السيدة خديجة ، فكان بهذا الزواج لا يميل إلى العبث ، أو إلى متع الحياة .. بل كان زاهدا فى كل شىء إلا من أشياء تقيم حياته البشرية على أسس سليمة قويمة .. فكان زواجه علامة على بشريته ، ودالا على عظمته ، وترفعه ، وروحانيته .

كَانَ بمكةَ أغنياءُ آخرُون .. لكنَّ أغلبَهُمْ كَانُوا يخافُونَ أنْ يُنفقُوا فِى وُجوهِ الخَيْرِ ، فتقلَّ أموالُهُم !

وكانوا يخشَوْنَ أنْ يفقِدُوا مكانَتَهُمْ إذَا قلَّ مالُهُمْ !

يتعاملُونَ بالرِّبا ، وهُوَ تسليفُ النُّقودِ بفوائدَ كبيرةٍ .. يستغِلُّونَ الناسَ فيزدَادُونَ غِنًى ، ويزدادُ الفقراءُ فقرًا !

يشربُونَ الخمرَ ، فيَخْلِطونَ فى كلامِهِمْ ويُضَيِّعُونَ كرامَتَهُم ..

يلعبُون المَيْسِرَ .. وهُوَ القِمَارُ ، ويعبُدُونَ الأصنامَ التى يصنعُونَها مِنَ الخَشَبِ والحَجَر !

كانَتْ تِلْكَ حالُ الكَثيرينَ من أغنياءِ مكّةَ ، وبَقيةُ أهلِهَا كانُوا يفعلُونَ مِثْلَهم .. إلاَّ مُحمدًا ..

كانَ مُحمدٌ يَكرهُ ذلك كُلَّهُ ولا يفعلُ شَيْئًا مِنه .. كانَ طيِّبَ الكَلِمَةِ .. صادِقَ الوَعْد .. أمينًا .. لا أمِينَ مِثلهُ ، حتى إنَّ أهلَ مكةَ أجمعُوا علَى تسمِيَتِه « الأمِين » !

* * *

اكتسب « محمد ﷺ » خلال معاملاته ، وسلوكياته ، صفة الأمانة ، واسم الأمين ، فكانت تلك المرحلة بمثابة مرحلة تهيئة ، وتشكيل لشخصيته العظيمة التى صهرتها المحن والأيام ، وقوت من توجهاتها الإيجابية نحو التوحيد والإيمان المناخ العام الذى تفاعل معه محمد .

كانَ مُحمدٌ يقْضِي يومَهُ فى العَمل ، يُنَمِّى مالَ زوجتِه الفاضلةِ بالتجارةِ .. يكتفِى بالرِّبح القليل .. لا يُبالِغُ فى ثَمن البضَاعةِ ، ولا يستغِلُّ حاجَةَ النَّاسِ إلَى سِلْعةٍ مِنَ السِّلَعِ ..

وفى أوقات فَراغِهِ يَخرجُ مِنْ مكةَ إلى الخَلاء ، حَيْثُ يتأمَّلُ فى خَلْقِ الله ويفكّر ..

ينظُرُ إلى الشَّمس نَهارًا .. والقمر والنُّجوم لَيْلاً .. ويُفكّرُ ..

ينظرُ إلى الجبالِ .. إلى الأشْجارِ .. ينظرُ إلى الأغنامِ ، وَحُملانُها الضعيفَةُ تجرى وراءَ أُمهاتِها ..

ينظرُ إلى الشَّبابِ .. والشُّيوخِ .. ويُفكرُ ..

ويعودُ بَعْدَ حِين إلى مكةَ سعيدًا .. تملأُ نفسَهُ الفَرحةُ بما شاهدَ من عَظَمَةِ اللَّهِ وقُدرته الظَّاهِرَة فِى خَلْقِه ..

ويَدْخلُ بيتَهُ فيُحَيِّى زوجتَه بِرِقَّةٍ .. ويُكلِّمُ بَنَاتِهُ بحَنانٍ .. وعلَى وجْهِهِ ابتسامةٌ مُشرقةٌ راضيةٌ ..

* * *

لم يعش محمد ﷺ حياة لهو ، وعبث ، ولا مبالاة .. بل كانت حياته كلها تأمل فى الكون ، وإبحار فى كل شىء ، والخروج من رحلة التأمل بيقين كامل ، وهو : أن الله . موجود ، وخالق هذا الكون .

كان مُحمدٌ أُمِّيًا ..لا يقرأُ ولا يكتُبُ .. لكنَّهُ كان يُكثِرُ مِنَ الخُروجِ إلى الخَلاءِ ، حَيْثُ تظْهرُ الطَّبيعةُ لِعَيْنَيه كَكتابٍ مفتوحٍ .. تَنْطِقُ سطورُهُ بوُجودِ الله ، خالِقِ الإنسانِ .. والحَيوانِ .. والنَّباتِ .. والجَمادِ .. خالِقِ الأرضِ .. والسَّماواتِ .. وما فيهما ..

وذاتَ يَوْمٍ ، وفى أثْناءِ سَيْرِه فى الخَلاءِ ، اقتربَ من جَبَلٍ يُدْعَى جَبلَ « النُّور » .. وتابعتْ عَيناهُ طريقًا صاعِدًا إلى أعْلاهُ ، ينحَنِى يمينًا ويسارًا كأنَّهُ الخيْطُ المتعَرجُ ..

كان يعرِفُ الطَّريقَ .. صَعدَ فيهِ كثيرًا ، إلىَ غارٍ قريبٍ من قِمَّةِ الجَبلِ .. اسْمُهُ غارُ « حِرَاء » .. وتخيَّلَ الهدُوءَ الذى يلُفُّ الغارَ .. هُناك ..

فى ذَلكَ الهُدوءِ التَّامِّ .. لا يشغلُهُ عَنِ التَّفكيرِ فى الكَوْنِ وخالِقِهِ أىُّ شغلٍ ..

وكان شهرُ رمضانَ قَدِ اقتربَ .. فخَطرَ ببالِهِ أن يَقْضىَ الشَّهْرَ فى الغارِ : يُسبِّحُ بحمْدِ اللَّهِ .. ويُفكِّرُ فى حِكْمَته تعالَى ..

للتعلم وسائله الكثيرة ، منها القراءة والكتابة ، والرحلات .. لكن الأنبياء بعامة ، ومحمد الأمين ، بخاصة ، قد تلقوا عن الله تعليمهم ، وقد اتخذ « محمد » من تأمله ،وتفكيره فى ملكوت الله ، والانشغال بخالق الوجود ، أهم وسائله فى التعلم ، والمعرفة الحقيقية عن الله .

أخْبر مُحمدٌ السَّيِّدَة خَديجةَ برَغْبتِه .. قال لَها إنَّهُ سيقْضِى شَهرَ رمضانَ بغارِ حِراء .. فاسْتقبلتْ رغبَتَهُ بابتسامة ، لِعِلْمِهَا أنَّهُ لا يُقْدِمُ أبدًا إلا علَى ما هُوَ خَيْرٌ .

شَجَّعته .. وفى الموعد الَّذى حَدَّدَهُ ، أعدَّتْ لَهُ ما يحتاجُ إلَيْهِ من طَعامٍ وماءٍ .. فَحَمل الزَّادَ وسارَ إلى جَبَلِ النُّور .. وأخَذ فى الصُّعود بِقُوَّةٍ ونَشاطٍ ، حتَّى بلغَ غارَ حِراء ..

هاتان صَخْرتانِ كَبيرتانِ علَى جانِبَى الغارِ ، لا يستطيعُ أنْ يَمُرَّ بَيْنَهُما غَيْرَ رجُلٍ واحدٍ ..

وهذا هُوَ الغارُ نفسُه .. مُظلمٌ .. وضيِّق ..

وَضَع مُحمدٌ زادَهُ أمامَ الغارِ ، واسْتدارَ يتطلَّعُ إلى ما حَوْلَه .. بالرَّوْعةِ المَنْظر !

الأفُقُ تتسعُ دائرتُه .. السَّماءُ كأنها قُبَّةٌ زرقاءُ ، تجْمَعُ تَحْتَهَا أجْناسًا من خَلْقِ اللَّهِ ..

الصّخورُ تختلفُ أَلْوانُها .. يا لَرَوعةِ المَرَاعِى البَعيدةِ !! يا لَرَوْعَةِ الطُّيورِ المُحَوِّمةِ فى الهواء !! يا لَرَوْعةِ الشَّمسِ وقَدْ مالتْ إِلَى الغُروبِ ، فاصفَرَّ لَوْنُها .. وألقتْ على المرْتَفعاتِ والأَوْدية ثِيابًا ذهبيَّةً !!

رفع مُحمدٌ يدَيْهِ وراحَ يقولُ :

يا ربَّ الكَوْنِ .. يا ربِّى .. يا خالِقَ كُلِّ الأشياء .. يا رازِقَ كُلِّ الأحْياء .. أعبدُكَ يا ربِّى ولا أعبدُ غَيْرَكَ ..

* * *

فى لحظة إشراق ، فاضت فيها روحه ، على كيانه ، وأشرق فيها عقله ، حتى غطى على كل حواسه .. عندئذ أدرك أن الله ، وهو خالق كل الأشياء ، والأحياء ، وهو الرازق ، وهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، المقصود وحده بالعبادة .

ينْتَشِرُ الظَلامُ ومُحمدٌ وحدَهُ فَوْقَ الجبلِ ، أمامَ الغارِ ..

السَّماءُ فَوْقَه صافِيَةٌ .. والنّجومُ كثيرةٌ وزاهِيَةٌ ، تتحرَّكُ فى نِظَامٍ نَحْوَ الغربِ .. وتَغِيبُ مجموعةٌ بَعْدَ الأُخْرَى .. لكنَّ نُجومًا أُخْرى تطلعُ مِنَ الشَّرقِ ، لتأْخذَ مكانَ التى غابَتْ .. نُجومٌ لا تُحصى .. مَلايينُ .. مَلايين .

يَرَى مُحمدٌ ذلك كُلَّهُ فيسبِّحُ بحمْدِ اللَّهِ ، ويُسْلِمُ عقلَهُ وقلبَهُ للَّهِ تعالى .. ويَذْهبُ بعضُ الليلِ ، فيدخُلُ مُحمدٌ الغارَ وينامُ نَومًا هادِئًا .. ويسْتيقظُ قبلَ الفَجر ليشاهِدَ الظَّلامَ وهُوَ ينهزمُ أمامَ النُّورِ .. يُسبِّحُ بحمدِ اللَّهِ ، ويُسْلِمُ عَقْلَهُ وقلبَهُ للَّهِ تعالى ..

ولَيْلَةً بعدَ لَيْلةٍ يَمْضى شهرُ رمضانَ ، فيَرْجِعُ مِحمدٌ إِلَى مكةَ .. يستأْنِفُ حياتَهُ العادِيَّة .. يتاجِرُ بِأَمانةٍ .. يُعامِلُ الناسَ بصِدْقٍ .. ومحبَّةٍ .. ورَحْمةٍ ..

وتَمرُّ الشّهورُ ويعودُ رمضانُ ، فيعودُ مُحمدٌ إِلَى غارِ حِراء .. يُسبِّحُ بحمدِ الله ، ويُسلمُ عقلَهُ وقلبَهُ للَّهِ تعالَى ..

* * *

للزمن فى حياة الناس ، قيمة ، وتأثير ، ولقد كان محمد يتخذ من الزمن لحظات ، تحمل بين طياتها إيمانه العميق بخالق هذا الكون ، وكان شهر رمضان من الشهور المباركة ، الذى يعيشه « محمد » بقلبه ، وعقله ، ووجدانه ، قريبا من ربه وخالق هذا الكون ، وباعث الحياة فى أرجائه .

يُتِمُّ مُحمدٌ الأربعينَ من عُمْرِه .. وتبدأُ القِصَّةُ الخالِدةُ :

قِصةُ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ ، في شَهْرِ رمضَان .. ومُحمدٌ في غارِ حِراءٍ كعادَتِهِ .. يُسبحُ بحمدِ اللَّهِ ، ويُسْلِمُ عقلهُ كُلَّهُ .. وقلبَهُ كُلَّهُ .. للَّهِ تعالَى ..

يمتلئُ الغارُ بنورٍ ساطِع .. مِنْ أيْنَ يَجيءُ ؟

يلْتفتُ مُحمدٌ يَمينًا فلا يَرَى مَصْدرَ النورِ .. مِنْ أين ؟

يَلتفِتُ يسارًا فلا يَرَى مصْدرَ النورِ .. ثُمَّ يتسِعُ الغارُ مِنْ حَوْلِهِ ، ويَرى شَيْخًا عَربيا مهيبَ الطلعَةِ .. جميلَ المَنْظرِ .. يتلألأُ النورُ فى وجهِهِ ..

يتكلَّمُ الشَّيْخ .. يَقُولُ : « اقْرأ » ..

قال مُحمدٌ :

« ما أنَا بقَارِئ » ..

كانَ مُحمدٌ أُمِيًّا .. لا يقْرأُ ولا يكتُب !

احْتضنَ الشَّيْخُ مُحمدًا .. ضمَّهُ إلَى صدرِهِ ضمَّةً قوِيَّة .. ثُمَّ تَركهُ ليستردَّ أنفاسَهُ ، وعَادَ يقولُ : « اقرأْ » ..

قال مُحمدٌ : « ما أنَا بِقَارِئ » ..

مَرَّةً ثانِيةً يضمُّهُ الشَّيْخُ ضمَّةً شديدةً .. ثُمَّ يدَعُه .. ويقولُ « اقرأْ » ..

سألَ مُحمدٌ :

« ماذا أقرأ ؟ » ..

يقولُ الشَّيْخُ :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ .

قرأَ مُحمدٌ .. جَعَلَ يُرَدِّدُ الآياتِ الكريمةَ ، فكأنَّما نُقِشَتْ نَقْشًا فى قلبِهِ الطَّاهِرِ .. وغابَ الشَّيْخُ ..

* * *

خَرجَ مُحمدٌ مِنَ الغارِ ، فإذا نُورُ الفَجْرِ الوَرْدِىّ ينبَثِقُ مِنَ الشَّرقِ ..

أخَذَ طريقَهُ مُنحدرًا إلَى سَفْحِ الجَبل ، مَشغُولاً بما رأَى وسَمِع ..

يَمْشى فى دَهْشَة وعَجَبٍ .. ويُفاجأُ بالشَّيْخِ العربىِّ فى صورَةٍ كبيرةٍ ، هائِلة .. يجلسُ فَوْق كُرْسِىٍّ ضَخْمٍ ، بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ ..

أدارَ مُحمدٌ بصرَهُ إلَى ليَمِينِ فرآه .. أدارَ بصرَهُ إلَى اليسارِ فرآه ..

وناداهُ الشَّيْخُ بصَوْتٍ واضِحِ النَّبرَاتِ ، قال :

– يا مُحمَّد .. أنا جِبْرِيلُ .. وأنتَ رسولُ اللَّهِ .. أمَرَنِى اللَّهُ أنْ أُبْلغَكَ ذَلك ..

وغابَ جِبريلُ عَليهِ السلامُ ..

وقَف مُحمدٌ ﷺ فى مكانِهِ فترةً ، وصَوْتُ جِبريلَ تتردَّدُ أصداؤُهُ فى الأُفُقِ :

أنت رسولُ اللَّهِ ..

من الجَبَلِ :

أنتَ رسولُ اللَّهِ ..

مِنْ الأَوْدِية :

أنتَ رسولُ اللَّهِ ..

وكأنَّما الدُّنيا كُلُّها تُردِّدُ قَوْلَ جِبريلَ :

أنتَ رسولُ اللَّهِ ..

أنتَ رسولُ اللَّهِ ..

أنتَ رسولُ اللَّهِ ..

وشيْئًا فشيئًا استردَّ مُحمدٌ بعضَ هُدوئِهِ وثباتِهِ ، وأسْرعَ إلَى مكةَ .. إلَى بَيْتِه ..

وفتحتِ السَّيدةُ خديجةُ البابَ تستقبِلُهُ ، فطلبَ مِنْها أنْ تُغَطِّيَهُ ..

رأتْهُ يرتَعِشُ فغطَّتْهُ بثيابٍ تُدْفئهُ ، ثم سألتهُ فقصَّ علَيْهَا ما رأى .. وأخْبَرها بما سَمِع ..

قرأ علَيْهَا الآياتِ الأُولَى من سُورةِ العَلَق ..

وقال :

– يا خَدِيجةُ .. إنِّى أخافُ أن يَمسَّنى شَرٌّ ..

فقالَتْ خديجةُ :

– كلاَّ ، واللَّهِ لن يَمسَّكَ الشَّيطانُ بشرٌّ ..

إنَّكَ تصلُ الرَّحمَ .. وتُعِينُ المُحتاجَ .. وتُعْطِى المَحْرومَ .. وإنَّك وَفِىٌّ فى وَعْدِك .. صادِقٌ فى قَوْلِك .. أمينٌ إذا اؤتمنْتَ .. وإنَّ اللَّهَ لن يُخْزِيَكَ أبدًا !

* * *

وبعد هذه التجربة ، مع الوحى ، يتلقى « محمد » فيضا من المودة ـ التعاطف ، والحنان ، والتأييد المطلق ، والثقة الكاملة من الأم ، والزوجة ، ورفيقة الحياة السيدة الجليلة : « خديجة » وهذا إيذان بأن يطمئن ، ويسير فى طريق الدعوة إلى الله .

اطمأنَّ قلبُ الرسولِ ﷺ ، وهَدأتْ نفسُه .. وجَعل يتلُو الآياتِ الأُولَى مِنْ كتابِ اللَّهِ :

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّم الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم﴾ ..

ما أحْلاَها فى السَّمْع ! وما أعْظَمَ معنَاها !

اقْرَأْ ..والقراءةُ هِىَ وسيلةُ العِلْمِ ..

اقْرأْ باسْمِ رَبكَ ، الذى خَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ بقُدْرَتِه .. وخَلَقَ الإنسانَ من شَىْءٍ بَسيطٍ .. خلقَهُ مِنْ عَلَق .. وهُوَ الدمُ المُتجمِّد .. مِنْ جسمِ الأب يأتى بعضُه .. وفى جِسمِ الأُمِّ يكونُ بعضُه .. وفى بَطْنِ الأُمِّ يتَّحِدَانِ ، فإذَا هُمَا بقُدرةِ الله تعالَى مَخْلُوقٌ جديدٌ .. جَنِينٌ ..

يَنْمُو .. ويَنمُو .. ويَنمو .. وبقدرةِ اللَّهِ تعالَى يُولَد ..

ما أجمَلَهَا مِنْ آياتٍ ! وما أرْوَعَ مَعْنَاها !

اقْرَأْ وَرَبُّك الأَكْرَم .. الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلمِ ..

القلمُ أدَاةُ الكتابةِ ، والكتابةُ هِىَ الطَّرِيقَةُ الَّتى يُسَجَّلُ بِهَا العِلْم .. وتَحفَظ مِنَ الضَّياعِ ..

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَم .. الَّذى عَلَّم الإنْسانَ كُلَّ شَىْء ، فى الماضِى .. وهُوَ لذى يُعَلِّمُ الإنسانَ كُلَّ شَىْء ، فى الحاضِر .. وهُوَ الذى سَيُعَلِّم الإنسانَ كُلَّ شَىْء ، فى استقبل ..

اقْرَأْ ..

وهكذا تبدأ رحلة الإسلام مع العلم ، ويتجه بالبشرية نحو المستقبل الآمن المؤسس على العلم . ولا يكتمل الإسلام ، فى نفس أى مؤمن مسلم إلا بالعلم .. ومن هنا كانت العظمة الحقيقية لنزول أول آية قرآنية ، حينما أمرت بالعلم ، وبدأت الرسالة بالعلم ، وذلك حينما قال الله على لسان الوحى إلى « محمد » :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ .

صدَقَ اللَّهُ العظِيم ..

أهم أهداف عرض هذه الدراسة :

١ – التفكير فى تطوير منهج الدراسة الدينية للأطفال ؛ حتى يقوم على أسس سردية قصصية تحليلية ، استنتاجية . بحيث يتم عرض الآيات الكريمة من خلال « قصة وآية » لترتبط الآية فى عقل ، ووجدان الطفل ، بإيجابياتها ، مع بيان الأسباب العقلانية ، وراء نزولها – وفى هذا الصدد يمكن الاستفادة من الدراسة الجادة ، التى تنشرها دار المعارف » عن « نزول الوحى » ، و« حق الوالدين » و« صحبة الأخيار » إلى آخر هذه النوعيات من الدراسة ، التى تقرن الآية الكريمة ، بموضوعاتها ، ومناسبتها .

٢ – إن أهم ما يواجه العالم الإسلامى ، هو الذى يتمثل فى عدم فهم الدين الفهم العقلانى السليم ؛ ولذلك كان من أوجب واجبات التربية ، والتعليم ، أن نتوجه إلى أطفالنا الذين ، لم يتلقوا حظا من التعليم الدينى العقلانى ، لأن نجعل منهم تربة خصبة نزرع فيها أفكارنا السليمة الصحيحة عن القرآن الكريم ، وأسباب نزول آياته ، وفى هذا تنوير لعقولهم ، وتكثيف لمشاعرهم وإضفاء المصداقية على ما يتلقونه من أدبيات الأدب الإلهى والنبوى الشريف .. ومثل هذا المنهج التربوى فى عرض الآيات الكريمة ، ستسد الطريق فى وجه الفكر الغيبى ، الذى زرعه فى مراحل متفاوتة ، بعض مفكرى الأغراض الخبيثة ، التى تريد حرب الإسلام وتدمير أجياله الصاعدة .. والقضاء على المساحات العقلية التى يتميز بها ، وذلك باحتضان الخرافة ، والتخويف كمنهج للدعوة .

٣ – هذه الآيات ، ومنهج تفسيرها ، يجعلنا نحن المربين ، أمام قضية الآيات القرآنية ، وكيف نفسرها لأطفالنا ؟ فهل نأخذ بالتراث فى هذا . أم نأخذ بالتفاسير المعاصرة ، ومعظمها صادر عن التزام عقائدى أو سياسى ؟ ؛ لذلك ينبغى التأكيد على مواد أدبية من آيات القرآن الكريمة ؛ لتفسر تفسيرا ، يتفق ، وموضوعات الحياة الحرة المنتجة ،

الكريمة ، فنربط بين اختيارنا للآيات ، وموضوعات العدل ، والعلم ، والنظافة والنظام .. إلخ .

٤ – إن « أدب الطفل » الذى يتخذ من القرآن الكريم مصدرا ومن القصص القرآنى تفسيرا تاريخيا صحيحا للتوجه الدينى العام ، ومن المناسبات ، والغيبيات مطلقا للفهم المنطقى حول الدين بعامة ، وحقيقة الإيمان بالله ، ورسله ، والحياة الآخرة بخاصة ، إنما هو أدب يطلق قدرات الطفل الإيجابية ، ويحبب إليه الحياة وفيه إشعاق لملكاته ، ومواهبه ، واستعداده ، وفيه نفى لكل ما يجعل الطفل – ثم بعد ذلك المواطن – يائسا مكتئبا ، حزينا غير آمن على حاضره ، وبعد مماته ؛ لأن الإيمان الذى سنزرعه فى وجدان أطفالنا بمثل هذا الأدب الإلهى العظيم ، سيجعل هذا المخلوق كائنا واثقا فى عدل الله ، وقضائه وقدره ، وينطلق وهو صديق للحياة بدلا من أن يكون عدوا لها ..

٥ – والقرآن الكريم فى كل ما تشرف به أبصارنا من قراءة ، هو طب النفوس ، ومؤدِّب البشر ، وفالق القوى الإبداعية ، وهو مصدر فى قصصه ، وجميع آياته كى نربى به أطفالنا ، ونجرى على ألسنتهم آياته الكريمة .. فالطفل الذى ينشَّأ على الإيمان ، يكون القرآن الكريم هاديا له فى كل حياته ، ومدرسة يتعلم فيها البلاغة والفصاحة ويأخذ عن هذه المدرسة الخلق ، والعلم والفضائل ، ويمتلىء قلبه بنور المعرفة فيصح مواطنا صالحا ، يفوز به أبوه ، وأسرته ومجتمعه : وإنسانيته ..

الفصل الثانى

مع الحديث الشريف والطفل وأدبه

نقدم هنا طائفة من الأحاديث الشريفة التى تحض فى بعضها على الاعتناء بالطفل ، مع بيان كيفية هذه العناية ، وطائفة أخرى تخدم موضوع أدب الأطفال ، ويستبين من خلالها ، أو من خلال عرض محتوى بعضها ، دون نصه خوف الإطالة ، كيف أن المرء يستطيع أن يقتبس من سنة نبينا ، ﷺ القولية ما يقدم غذاء روحيا للطفل العربى المسلم من عقائد وآداب وغيرها من كل ما يحسن أن يلم به الطفل ، لينتفع به فى حياته القابلة ، ولا شك فى ضرورة إحاطة القائمين على إعداده وتنشئته بكل ذلك ، والإلمام بنصوص الأحاديث التى تخدمه حتى تغرس فى ذاكرة الطفل صغيرا ، بعد تقديمها له جملة فى صورة محببة مشوقة ، تدفعه لأن يحفظ من تلك النصوص الشريفة ما سهل ، وتأخذ بيده إلى الاستعداد لتلقى غيرها ، كلما تقدمت به الأيام ، ولا شك أن ذلك هو عين ما نريد من « أدب الأطفال » أن يؤديه .

١ – إنا نجد أن رسول الله – ﷺ – قد روى عنه أنه قبل الحسن بن على ، وكان عنده الأقرع بن حابس التميمى ، فما كان إلا أن قال لما رأى ذلك : إن لى عشرة من الولد ، ماقبلت منهم أحدا . فنظر إليه رسول الله ، ثم قال « مَن لا يرحم لا يرحم » . وقد وسم النبى ، ﷺ ، أحد الأعراب بعدم الرحمة عندما تعجب من تقبيل الصبيان ، مقررًا أنهم لا يقبلونهم . ثم انظر إلى رده ﷺ حينما يقول : « أو ملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟ »[1].

٢ – وقد جاء فى الحديث الشريف الحث على الاعتناء بالبنات ، والتأكيد على ضرورة توفر الشفقة والرحمة فى قلوب من يقوم بتنشئتهن ورعاية أمورهن . ألم يقل الرسول ، ﷺ « من يلى من هذه البنات شيئا ، فأحسن إليهن ، كن له سترا من النار ؟ ! »[2] .

---

(١) انظر هنا ، وسابقه : صحيح البخارى ٤/ ٥٨ [ط . دار الفتح بالإسكندرية] .
(٢) السابق ٤/٥٧ .

٣ – وكما جاء عنه ، صلوات الله عليه أنه قبل الحسن ، وأنه قال عنه وعن أخيه الحسين هما ريحانتاى من الدنيا »[١] – جاء عنه أنه خرج على أصحابه ، وأمامه[٢] بنت أبى العاص على عاتقه ، فصلى فإذا ركع وضعها ، وإذا رفع رفعها[٣] .

٤ – كما تدخل على رسول الله – ﷺ – إحدى الصحابيات بابنها ، وتطلب إلى الرسول أن يبايعه فيقول ، ﷺ ، « هو صغير فمسح رأسه ودعا له » . ويخرج بهذا الصغير جده إلى السوق ، فيشترى الطعام ، فيلقا وابن الزبير ، رضى الله عنهم ، فيقولان له أشركنا ، فإن النبى قد دعا له بالبركة ، فيشركهم[٤] .

٥ – وتجسيدًا لكل ما سبق من حرص الإسلام على أن يحاط الطفل بكل الحنو ، والرأفة ، يبين لنا ذلك الحديث المروى عن أبى هريرة ، ما جُبِلت عليه المرأة ، وبخاصة إذا ما كانت أمًا ، من تعلق بالأطفال ، وحب لهم ، وما أودع فى قلبها من ذلك ، كى تكون مُعَدّة للقيام بدورها الرئيس فى تربية الطفل وتنشئته . يقول الحديث : « كانت امرأتان معهما ابناهما – جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت صاحبتها : إنما ذهب بابنك . قالت وكلٌ من المرأتين تعرف الطفل المنسوب لإحداهما ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه ، فقال ائتونى بالسكين ، أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى »[٥] .

هذا بعض ما يعن للباحث المنقب أن يقف عليه عندما يتفحص ما فى سنته ، ﷺ ، من اهتمام بالطفل والطفولة ، فى إطار اهتمام كامل بالأسرة ، وسلامة بنيتها . التى منها تتكون بنية المجتمع المسلم ، فتقوى إذا قويت بنية الأسرة وتكون على العكس إذا ما لحق بها الضعف والوهن ، واعترت أبناءها أمراض خِلْقية أو خُلُقية تحول دون أن عود منهم النفع على مجتمعهم وأمتهم ، وليس ذلك غريبا ، فلقد رأينا كيف أن القرآن يهتم بالطفل والطفولة ، ويدرأ عنها أذى الجاهلية ، وحمق تصرف بعض العرب فى زمنها . والسنة إنما تؤكد ما يجئ به القرآن وتزيده إيضاح وتفسيرا .

---

(١) السابق ٤/٥٧ .
(٢) هى بنت ابنته .
(٣) صحيح البخارى ٤/ ٥٧ ، ٥٨ .
(٤) صحيح البخارى ٣/ ٨٦ .
(٥) السابق ٢/ ٢٧٩ .

ولنا أن نتوقف عندما اقتبسنا من أحاديثه وأشرنا إليه من سلوكياته ﷺ وما سبق أيضا من كتاب الله تعالى ، ليستبين لنا مدى ما يوجهه الإسلام من الاهتمام بالطفل وعدم الشدة عليه وبخاصة فى مراحل حياته الأولى ، حيث يتطلب الأمر أن يأنس الصغير بأهله ويترفقوا هم به ، ليسقى منهم ، فى هذا العهد المبكر بالحياة ، كل ما يعده للحياة الاجتماعية السليمة ، وما يجعله صحيح النفس والبدن ، وملتقى للتربية القويمة التى تأتيه من كل اتجاه .

وغير بعيد عنا إنكار النبى ، ﷺ ، على من لم يظهر لأبنائه الصغار رحمته بهم وشفقته عليهم ، لما قد يتخيله منافيا لما تقتضيه مكانته ، أو رجولته ، ولقد رأيناه ﷺ يقبل ابن بنته ويحمل بنت ابنته ، وهو يصلى ولو كان فى ذلك مساس بالمكانة أو المنزلة لما فعله ، لأن مكانته ، صلوات الله عليه ، أرفع مكانة .

وربما أقدم على الجفوة بالصغار ، حتى من أبنائه من يجهل حقيقة الأمر ، ولا يحيط علما بمكانة الطفولة فى الإسلام . وإذا كان ما سبق يمثل بعضا مما جاءت به السنة الشريفة لتبين لنا إعظام الإسلام للطفل والطفولة ، وهو ما يعضد ما جاء فى القرآن الكريم حول ذلك أيضا فإنا نسوق لك هنا طائفة من الأحاديث الشريفة التى يحسن بالطفل ، ومربيه من باب أولى أن يلم بها ، فى صورة عرض مشوق لمضمونها وقراءة صحيحة لنصوصها ، حسبما يتيسر للطفل أن يتقبله بعد أن يكون قد ألم بالقراءة واستطاع أن يفهم ما يقرأ ولا شك أن الطفل فى حاجة لأن تغرس فى نفسه القيم والفضائل المختلفة من صدق ، وصبر ، وشجاعة ، وأمانة ، وحب لغيره ، إلى آخر ما يمكن أن يستوعبه الطفل من ذلك ، طبقا لما تحتاجه مراحله العمرية المختلفة .

وفوق كل ذلك لابد له من أن يكون موصولا بعقيدته التى تنبع منها كل الفضائل والقيم . ولسوف نرى فيما يلى كيف أن هناك نصوصا شريفة تعرض لنا تشريعات حول بعض مما سبقت الإشارة إليه ، تستخلص من قصة أو ما يشبهها ، وقد يكون ذلك على سبيل بث الحياة فى الجماد أو على لسان الحيوان ، أو متصلا بالحيوان ، وكل ذلك مما يسهل على الطفل متابعته ويحبب إليه الإلمام به وهو بعد ذلك ينمى خياله ، ويرقى بلغته ، عندما يقرأ النصوص فيفهمها ثم يحفظها وبذا نكون قد غنمنا الكثير من الأخذ بيد الطفل إلى هذه الرحاب الطيبة الفسيحة .

فممّا يعرض الأحكام والشرائع والعقائد والدعوة إلى التحلى بالفضائل ما يلى :

١ – ما جاء عن ابن عمر ، رضى الله عنه ، عن النفر الثلاثة الذين كانوا فيما مضى قبلنا من الأمم ، وكانوا قد أصابهم المطر أثناء سيرهم ، فألجأهم إلى غار ، فانطبق عليهم ، فما كان إلا أن اهتدوا إلى ضرورة أن يذكر كل منهم عملا صالحا تقرب به إلى الله فيما مضى ، ليتشفع به لدى الله ، ليفرج عنهم ما هم فيه ، فذكر أحدهم أنه ثمّر لأجير أجره ، الذى كان رفضه لضآلته حتى غدا مالا كثيرا . فلما عاد الأجير مقتضيًا أجره بعد زمن أعطاه ذلك المال الكثير ، وذكر الثانى أنه كان بارا بأبويه وبلغ من برّه بهما أنه حاد من عمله بالرعى متأخرا ، ومعه لبن ، يريد أن يسقيهما منه قبل أهله ، وعياله ، وكان الجوع قد أخذ منهم ، وكان أبواه قد رقدا ، فما رضى أن يوقظهما حتى طلع الفجر ، فسقاهما ، ثم سقى أهله وعياله ، ثم ذكر الثالث أنه عف عن ابنة عمه التى كان يحبها ، فلما احتاجت إلى بعض المال منه أرادها على الفجور ، فأذكرته الله تعالى ، فمنحها ما أرادت من ماله ، وخشى الله تعالى ، وأقلع عما كان سيقع فيه من فاحشة . وبعد أن ذكر الأول والثانى ما علم أنه صدق فيه ، وربه وأخلص لله ، كانت الصخرة التى سدت فوهة الغار تنزاح شيئا فشيئا فلما انتهى الثالث من تضرعه إلى الله بأصدق ما عمل فرج الله عنهم ، فخرجوا[1] .

٢ – عن أبى هريرة رضى الله عه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « بينما امرأة ترضع ابنها إذ مر بها راكب ، وهى ترضعه ، فقالت اللهم لا تمت ابنى حتى يكون مثل هذا . فقال : اللهم لا تجعلنى مثله . ثم رجع فى الثدى ، ومرت امرأة تَجَرَّرَ ويلعب بها ، فقالت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها فقال اللهم اجعلنى مثلها ، فقال : أما الراكب فإنه كافر ، وأما المرأة فإنهم يقولون : تزنى ، وتقول حسبى الله ، ويقولون تسرق ، وتقول حسبى الله »[2] .

٣ – جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله ، تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . قال فيسألهم ربهم ، وهو أعلم منهم : ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ويكبرونك ، ويحمدونك ، ويمجدونك ...[3] » ويبين لنا الحديث فيما بعد أن الله تعالى يسأل ملائكته : هل رآه هؤلاء المسبحون المكبرون الممجدون ؟ فيجيبون بالنفى .

---

(١) اقرأ نص الحديث فى جـ٢ ص ٢٨٨ من صحيح البخارى ، وقد تكرر وروده فيه .

(٢) السابق ٢/ ٢٨٩ .

(٣) السابق ٤/ ١٢٨ ، ١٢٩ .

فيقول الله تعالى : فكيف لو رأونى ؟ فتجيبه الملائكة بأنهم عندئذ يكونون أشد عبادة لك ، كما يقررون أيضا أن هؤلاء العابدين لله كانوا سيكونون أكثر عملا للجنة ورجاء لدخولها ، وخوفا من النار ، وتضرعا إلى الله ليبعدهم عنها إذا رأوا كلا منهما .

وفى آخر الحديث يقول الله تعالى لملائكته : « فأشهدكم أنى قد غفرت لهم » . كما يجعل لمن جالسهم مثل أجرهم . ولا شك أن مثل هذا الحديث وغيره مما يعرض للملائكة والعالم الآخر يبدو فيه غير قليل من التجريدية الصعب تقبلها على الطفل قبل المرحلة الابتدائية ، أو ربما قبل التاسعة أو العاشرة . كما يحتاج التعرض لذكر الملائكة والجنة والنار وكلام الله تعالى إلى أن يكون المعلم أو المعلمة كيسا يستطيع أن يجيب على أسئلة الأطفال حول ذلك مراعيا الدقة قدر استطاعته ، وغير لائذ بالفرار كما قد يفعل البعض ، على أنك ترى أن معنى الحديث يمكن أن يقدم للطفل الذى فى السادسة أو فى السبعة ، كما يمكن أن يبسط تناوله ، ويعرض بنصه كاملا ليقرأ وليفهم لمن تعدوا الحادية عشرة ، وأنت ترى ما فى التعرض لذلك من ترسيخ حب الخير فى نفس الطفل وغرس مراقبة الله والخوف منه فى نفسه ، ويلاحظ ضرورة عدم الإفراط فى تخويف الطفل الصغير والتهويل فى عرض ما يخيف وما يتصل بالنار وعذابها عليه ؛ لأن ذلك كما هو واضح فى غير موضعه ، كما قد يمثل قسوة على الطفل فى وقت هو فى حاجة فيه إلى التلطف به والتدرج معه ، وبخاصة فى مثل هذه الأمور ، ويجمل عرض ما يطلع من الأحاديث على شفقة الله بعباده ورحمته بهم ، تحبيبا للطفل فى أن يفعل الخير ويقلع عن الشر ، وفى حديث[1] طويل رواه أبو هريرة عن يوم القيامة ورؤية الله تعالى – ما يمكن أن يقدم فحواه إلى الطفل ليدل على رحمة الله بعباده التى قد تشمل المقصرين – فى هذا الحديث أن الله يصرف وجه رجل عن النار ، وكان مقبلا عليها ، وكان قد انفرد وحده بين الجنة والنار ، ويصيبه لفح الأخيرة ، بعد أن يدخل الله برحمته قوما كانوا فى النار إلى الجنة لأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله . فيسأله الله : هل تطلب أكثر من ذلك إن أجبتك إلى ما تريد ، فيقول : لا ، ويعطى على ذلك عهوده ، ثم إن الرجل عندما يقبل على الجنة يطمع أن يقرب إليها ، ويطلب من الله ذلك ، ويتعهد الا يطلب أكثر من ذلك ، ثم إنه عندما يقرب من الجنة يطمع فى دخولها ، وذلك لما يراه فيها من النعيم ، فيدخله الله الجنة ، ويأمره بأن يتمنى على الله ما يريد ، فيتمنى ، حتى تنقطع به الأمانى ، فيقول الله له : « ذلك لك ومثله معه » ، وهكذا نطلع الطفل على

(١) انظره فى صحيح البخارى ٤ ٣١٨ ، ٣١٩ .

عظيم عفو الله ونعيمه ، مراعين بساطة العرض ، وسهولة اللفظة ، والعبارة كما يتطلب المقام ، مشدودين إلى ما يرشد إليه الحديث من ضرورة الإيمان بالله ووحدانيته ، والإيمان بيوم الحساب وما فيه وضرورة الوفاء بالوعد[1] .

٤ – ويمكن أن يدرج تحت القص المحبب إلى الطفل أيضا روايتنا له ما جاء[2] عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن رسول الله ، ﷺ كان عند إحدى الصحابيات [أم حرام بنت ملحان ، زوج عبادة بن الصامت] [3] قال فنام ثم استيقظ ضاحكًا ، أى أخذته سنة من النوم دون قصد فسألته أمُّ حرام عن سبب ضحكه ، فقال ، فيما معناه ، إنه رأى ناسا من أمته يركبون البحر ، كأنهم الملوك على الأسرة ، وأنهم كانوا ذاهبين للجهاد ، أو للغزو فى سبيل الله ، ورغبة فى مرضاته ، وتقربا منه ثم نام ، ﷺ ، ثم استيقظ ضاحكا أيضا ، فلما سألته عن سبب ضحكه .

قال لها كما قال أولا ، فقالت الصحابية للرسول ادع الله أن يجعلنى منهم ، فقال أنت من الأولين . فلما كان عهد معاوية بن أبى سفيان ركبت البحر فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر ، فهلكت ، ونرانا قد خرجنا من عرض فحوى هذا الحديث بغرس روح الفدائية لدى الطفل ويجعله مواطنا صالحا ، يهب للدفاع عن وطنه إذا دعاه إلى ذلك داعى الجهاد ، ونلاحظ أيضا أن الإسلام لم يفرق بين رجل أو امرأة فى ذلك الأمر ، وبذلك نفيد من غرض الحديث أيضا أن تثق الإناث الصغار فى أنفسهن ، وفى أن لهن دورا ، يحتاج الوطن إليهن فيه ، كما يجمل بالمعلم أن يربط عرض ذلك الحديث بتاريخ فتح القسطنطينية ، وجهاد المسلمين فى نشر دينهم ، فى عبارات مبسطة ، وأسلوب سهل مفهوم . وهكذا ترانا غير بعيدين عند التعرض لبعض الأحاديث عن أن نصيب أكثر من هدف من الأهداف الكبرى التى يعمل « أدب الأطفال » لخدمتها ، فترانا نقدم للطفل ما يشبه قصة ، تحث على حب الوطن ، وتدعو إلى افتدائه ، والدفاع عن قضيته ولو اضطر الأمر إلى ركوب البحر ، ثم نرانا قد اضطررنا إلى أن نربط بين ما نقول وتاريخنا بما فيه من أمجاد وبطولات لا مناص من أن يتعرف الطفل بعضا منها كلما

---

(١) تكرر فى الحديث قوله تعالى ﴿ويلك يا ابن آدم ما أغدرك﴾ .

(٢) انظر صحيح البخارى ٣/١٥ ، وورد الحديث فيه أكثر من مرة .

(٣) ويحسن أن يؤخذ الطفل شيئا فشيئا بمعرفة أسماء بعض صحابة رسول الله ، وما يتصل بتاريخ الإسلامى ، وأعلام العروبة والإسلام فى المجالات المختلفة ، ليكون وثيق الصلة بتاريخ أمته منذ صغره ، عاملا على الإضافة إلى أمجاده ، بدلا مما نشاهد من زحف التفرنج ، وضياع الهوية ، اللذين هددا العرب والمسلمين ، حتى ناشئتهم .

تيسر له ذلك ، ولا شك أن ذلك يقتضى أن يكون لدينا المعلم والمربى الماهر المثقف ، ذو الكفاءة .

٥ – ويتصل بالقص اتصالا وثيقا هذا الحديث والذى يليه ، مع ملاحظة صلته بالحيوان ، إذ سنجد فى الحديث الذى معنا الآن إرشادا إلى حكم خاص به ، وهو استعمال الرفق معه والرحمة به ، وكذا نجد الشىء نفسه فى الحديث التالى إضافة إلى ضرورة المحافظة على ما يمتلكه المرء ، مع عدم الحزن على ما فات أوضاع ، ولا وسيلة لاسترداده . جاء عن أبى هريرة ، رضى الله عنه أن رسول الله ، ﷺ قال[1] :

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرا ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بى ، فنزل البئر ، فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، فسقى الكلب فشكر الله له ، فغفر له قالوا يا رسول الله ، فإن لنا فى البهائم أجرا فقال فى كل ذات كبد رطبة أجر » .

٦ – وجاء عن أبى هريرة ، رضى الله عنه أيضا أنه قال[2] صلى رسول الله – ﷺ – صلاة الصبح ثم أقبل على الناس فقال : « بينا رجل يسوق بقرة ، إذ ركبها ، فضربها ، فقالت إنا لم نخلق لهذا ، إنما خلقنا للحرث فقال الناس : سبحان الله ، بقرة تكلم[3] . فقال : فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وما هما ثم[4] .. وبينما رجل فى غنمه ، إذ عدا الذئب ، فذهب منها بشاة ، فطلبه حتى كأنه استنقذها منه ، فقال الذئب : هذا استنقذها منى ، فمن لها يوم السبع ، يوم لا راعى لها غيرى ؟ فقال الناس : سبحان الله ، ذئب يتكلم ! قال فإنى أومن بهذا أنا وأبو بكر وعمر ، وما هما ثم » . نجد هذا اللون من التعبير الدقيق ، ونجد – أيضا – وفى كلامه ، ﷺ ، ما يمتع النشء ويأخذ بألبابهم ، مع عظيم حكمة وأدب وهدى ، تستفاد جميعا بعد قراءة الحديث أو عرض محتواه ، وهكذا نجد أن لنا بذلك كنزا ثمينا يخدم فى مجال الرقى بمدارك الطفل وأخلاقه وسلوكه . وهو ما ينبغى ألا نحرمهم منه .

---

(١) صحيح البخارى ٤/ ٥٩ .
(٢) السابق ٢/ ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٣) أى تتكلم .
(٤) أى هناك .

٧ – وهذا حديث آخر يأخذ قالب القص أيضا ، يرشد إلى خلال الأمانة والزهد عن حاجات الناس ، والإيثار والتصدق على المحتاجين ، واستعمال المال فى عمار الأرض . جاء عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، قال[1] : اشترى رجل من رجل عقارا له ، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جَرّة ، فيها ذهب ، فقال لذى اشترى العقار : خذ ذهبك ، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب . وقال الذى له الأرض : إنما بعتك الأرض ، وما فيها ، فتحاكما إلى رجل ، فقال الذى تحاكما إليه : ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام وقال الآخر : لى جارية .

قال : أنكحوا الغلام الجارية ، وأنفقوا على أنفسهما منه ، وتصدقا » .

٨ – ونختم هذه الطائفة من الأحاديث الشريفة بذلك التوجيه الشريف من الرسول صلوات الله عليه ، حيث كان يبين لأصحابه كل ما تتضح به أمور حياتهم ويرشدهم إلى السلوك الإسلامى فى كل شئونهم ولا شك أن نشأنا فى حاجة ماسة لأن نزوده من ذلك بما يناسب كل مرحلة من مراحل عمره ، بخاصة أمام هذا الزحف الأجنبى ، الذى كادت تضيع معه الهوية ، فى خلط بالغ بين جوهر الحضارة والتقدم ، وما تتميز به كل أمة من خصائص اجتماعية ، وتوجهات دينية وقومية ، وما يعرف لكل أمة من الناس من التقاليد والعادات والسلوكيات التى تمس شخصيتها وترمز لى تفردها بين الأمم ، قال أنس بن مالك رضى الله عنه[2] : « أتانا رسول الله ﷺ فى دارنا هذه فاستقى ، فحلبنا له شاة لنا ، ثم شبته[3] من ماء بئرنا هذه ، فأعطيت وأبو بكر عن يساره ، وعمر تجاهه ، وأعرابى عن يمينه ، فلما فرغ قال عمر : هذا أبو بكر ، فأعط الأعرابى ، ثم قال الأيمنون الأيمنون ، الأيمنون قال أنس : فهى سنة ثلاث مرات » . ونستفيد من هذا التوجيه النبوى الشريف تعرف هذه القاعدة الطيبة فى بدء مصافحة جمع من الناس ، أو إعطائهم شيئا ما ، والمبنية ولا شك على أن المسلمين هم أصحاب اليمين[4] .

نستفيد أيضا أن الناس فى الإسلام سواسية كأسنان المشط . فهذا أبو بكر صديق رسول الله وأحَبُّ أصحابه إليه ، قد قدم الرسول نفسه أعرابيا عليه فى السقيه لأنه كان

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٢٩٠ .

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٩٨ .

(٣) أى خلط اللبن بغيره ، وهو هنا الماء .

(٤) مقابل أصحاب الشمال ، وهم أهل النار ، كما جاء فى سورة الواقعة .

يجلس عن يمينه ، على حين أن أبا بكر كان عن يساره . فيالها من عظمة للمرء الذى يغذى فى طفولته بأدب الإسلام وإرشادات نبيه ، ﷺ .

إنها تعاليم الإسلام وهديه ، وبها يتكون النشء القوى الصالح ، المتأدب فى طفولته بأدب الإسلام ، وإرشادات نبيه ﷺ .

إننا نلاحظ دقة التصوير وروعته كما هو الحال فى الحديث الخامس حيث تتمثل لنا هيئة ذلك الكلب الذى بلغ به الجهد مبلغه من شدة العطش ، وكذا تتجسد أمامنا شفقة الرجل وامتلاء قلبه بالرحمة ، مما جعله يتحمل مشقة النزول إلى لبئر والصعود منها ويتضح لنا قدر هذه المشقة فى إمساكه خفه الملأى بالماء بفيه ، حتى يمكن تسلق جدار البئر حال صعوده .

ثم لابد من التوقف عند هذا الحكم العام آخر الحديث ، بأن الرفق بكل ذات كبد رطبة من الحيوان يكسب المرء أجرا . وهذا ما يقرره أول الحديث السادس ضمن ما يقرر من أحكام ، فالبقرة لم تخلق للركوب بل للحرث فمن الظلم لها أن يضيف المرء إلى عبئها عبء الركوب فكل شيء ميسر لما خلق له ، وكل شيء فى الحياة له وظيفة ، ودور لا يصلح إلا لأدائه وحده ، وكلام الرسول ﷺ ان البقرة والذئب كليهما قد تكلم حقيقة . ويؤكده تعجب الناس من ذلك ، وهذا صدق وحق . وينبغى على المعلم عند عرض مثل هذين الحديثين أو فحواهما على الأطفال ، الذين يكونون قد جاوزوا التاسعة – لابد له من أن ينبههم إلى أن كل ما يقوله الرسول حق وصدق لأنه لا ينطق عن الهوى مثله ما جاء فى القرآن عن نملة سليمان وهدهده كما يفرق بين هذا وما يجيء على ألسنة الحيوان والطير فى مثل « كليلة ودمنة ، وشعر « شوقى » ، وغير ذلك مما كتبه الأدباء تسجيلا للحكمة أو ابتغاء تسلية الأطفال وتثقيفهم ولابد أن نكون قد خرجنا من الحديثين السابقين وما يماثلهما مما ينبغى على المعلم والمربى أن يبحث عنه لأن مثل هذه الأحاديث تحقق الخبرة وتحث على الأخلاق الحميدة ، والسلوك السوى .

ثم إننا بعد هذا كله ، نستطيع أن نوضح للطفل القيمة الأخلاقية ، والإيمانية ، التى يحرص عليها الرسول الكريم ، من وراء معظم هذه الأحاديث ، وهى قيمة بانية لأفراد المجتمع المسلم ، وأن الأخلاق ، لا تنفصل عن الإيمان ، وأن الإيمان يستوجب التصديق بكل ما أتى به الرسول العظيم وهو لذلك حينما يستنطق الجماد أو الحيوان ، إنما يقصد أن الله قادر على كل شيء ، وأن ما يقوله الرسول ، إنما من قبيل المتوقع حدوثه .

الفصل الثالث

أدب الطفل
والأدب العربى القديم

أولا : أدبنا العربى القديم معين للكتابة للطفل

ما دام الهدف هو تنشئة طفل عربى يبشر بمستقبل مشرق لأمتنا التى تعد نفسها ، رغم عوادى الزمن ، وصعوبات المشاكل والعقبات التى تعترض طريقها ، أو تفرض عليها ، فلابد أن نعود إلى أدبنا العربى فى القديم منذ عصره الأول لنكشف وننقب عما يمكن للمربى والمعلم أن يستفيد به منه فى أداء مهمته .

بين يدى توقفنا عند أدبنا العربى القديم لنقدم بعضا مما تضمنه مما يصلح مادة تقدم للطفل ، حسب مقدرته على استيعابها ، والاستفادة منها ، نود أن نحدد لك معالم تلك المادة وأقسامها إذ هى من الغزارة بحيث تجعلنا نجتزئ منها ما يمكن أن يكون مناسبا لطبيعة هذه الدراسة وتتضمن هذه المادة التى نعرضها عليك المصدرين التاليين :

١ – الاهتمام بالطفل فى الأدب العربى القديم ، وما جاء فى ذلك من شعر أو نثر يدور حول الاستبشار به ، وعواطف الوالدين تجاهه ، وما ينشد له من رجز أو شعر بغرض ترقيصه ، وإدخال السرور عليه حينما يكون فى مرحلة الطفولة المتقدمة ، وما يقدم له من أدب تعليمى ، غرضه رسم السبيل المستقيم له فى حياته المقبلة ...

٢ – المادة الأدبية التى تصلح معينا لأن يستقى منه ما يؤدب به الطفل وما يقدم له فى صورة فنية تصله بتراثه العربى العظيم ، فتقدم له فى صورة حكاية ، أو قصة ، أو نص مسرحى ، يبرز التوجهات الاجتماعية ، أو نص شعرى ، وذلك حسبما يتراءى لمؤدب الطفل ومربيه وكيفما يتناسب مع إدراكه ، وقدرته لعقلية . وفى تلك المادة تجد التاريخ ، والأدب والسياسة ، وخبرات الحياة ، وكل قيمة جميلة ينبغى أن تغرسها فى نفس الطفل من حب الأوطان وحب الغير ، وصبر على الأذى وحلم ينبغى أن يغلب وقت الغضب ، واتصاف بالأمانة والصدق ، ورأفة بالناس إلى آخر كل القيم السامية التى يمكن أن يستخلصها المؤدب والمربى من المادة التراثية التى يصبها للطفل فى القالب

الفنى المعين . وفى المقابل فإننا نجد تلك المادة يعمل عرضها على طفلنا العربى على سلب كل ما هو سيىء ورديء ومقوت من الطباع والأخلاق . إننا نجد فى تراثنا :

(أ) الأمثال بما لكل منها من مورد يمثل قصته الأولى التى قيل فيه ، والتى ربما كانت خيالية كبعض الأمثال التى تأتى على ألسنة الحيوانات أو تبدو كالخيالية ، وذلك عندما يظهر أنها تتحدث عن أمور قد لا يصدق أمر حدوثها ، أو قد تكتسب ذلك لتباعد المدة الزمنية بيننا وبين مضربها . وأن نقص ذلك على الطفل بما يتناسب مع سنه فإنا نكون قد قدمنا له ما يشوقه ، ويصقل خياله ويبعث على أن يتساءل لتكون منا الإجابة التى تنمى معارفه وتضيف إلى مالديه من معلومات ، وللأمثال مضرب تقال فيه ، وذلك عندما تواتى الواقعة أو الآونة التى تتشابه فى ظروفها وملابساتها مع ما ضرب له المثل أولا . وأن يعلم الطفل ذلك – ولا شك أنه يناسبه تعلمه فى مرحلة تأتى بعد الثامنة ، أو فى الثانية عشرة أو ما حولها – لابد أنه يورثه حكمة الرأى وضرورة عمال الفكر وهو ما نحتاج أن يكون أبناؤنا منشئين عليه منذ صغرهم ليعود ذلك بالفائدة عليهم وعلى وطنهم فى المستقبل .

(ب) كما نجد أيضا احتفال العرب القدامى بالجن وزعمهم أنهم رأوهم وخالطوهم ، وأنهم يسكنون فى أودية وأماكن بعينها . وليس ببعيد عن الأذهان نسبتهم الذكى إلى وادى « عبقر » الذى زعموا أن الجن كانت تسكنه ، وقد حدثنا القرآن الكريم عن هذا الاحتفال من العرب بالجن فى غير موضع منه ، قال تعالى : ﴿ويوم يحشرهم جميعا ، يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا ، قال النار مثواكم ، خالدين فيها إلا ما شاء الله . إن ربك حكيم عليم﴾ . [الأنعام : ١٢٨] . وقال أيضا على لسان الملائكة ، عندما يسألون عن عبادة البشر إياهم : ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم . بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون﴾ . [سبأ ٤١] . ولا شك أن حكاية ما يتصل بالجن فى تراثنا للطفل فى مرحلة متأخرة بعض التأخر عن فترة المهد قد تمتد إلى الثانية عشرة – سوف يبعثه على التخيل ويفتح لديه قنواته . وقصص الجن والعفاريت والسحرة وما شاكل ذلك مادة ثرية لصناعة الأساطير والخرافات التى يعتمد عليها كثيرا أدب الأطفال فى عصرنا . بل إن هذه القصص المتوهمة تكون أحيانا محور اهتمام أديب أو شاعر يبدع على أساس منها قصة أو قصيدة . ومثل ذلك أيضا ما نجده فى تراثهم من اهتمامهم بالحيوان وتسميهم بأسماء بعض أنواعه ، وحكاياتهم على لسانه ـ لكن هذا

كله ، مرهون بالمنهج الذى تقدم به مادة الأساطير والخرافات للطفل ، وهو منهج إمتاعه ، لا إرهابه ، زإطلاق قوى الخيال والتخيل ، لا إطفائها بإرعابه ، كما أنها ينبغى أن تتضمن حكمة ، أو توجها إيجابيا ، يستشعره الطفل فى النهاية ..

(جـ) ومما يثرى أدب الأطفال فى تراثنا ما نجده من قصص أو أسباب قول الشعر وقرضه .

(د) وكذلك ما نجده من ذكر أيام العرب وحروبهم ومعاركهم التى لم تكن تنتهى فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام استحال كل ذلك إلى غزوات يتقابل فيها الحق مع الباطل وجها لوجه ، وتكون الغلبة آخر الأمر للإسلام ، وتكون حركة الفتوح الإسلامية الواسعة التى تبلغ بها الدولة الإسلامية أقصى اتساعها ، وتمتد من حدود الصين حتى ساحل الأطلسى ، ومن حدود فرنسا وبخارى وسمرقند حتى أواسط أفريقية ، كل ذلك نجده مصدرا خصبا للروايات والقصص التاريخية التى نرى أدباءنا المهتمين بالطفل قدموه له فى أعمال مختلفة لتناسب احتياجه .

ونحن عندما نقدم له ذلك إنما نحرص على صياغة شخصيته العربية الإسلامية ، بما يعرض عليه من تاريخ العرب والمسلمين ، وما كانوا يحرصون عليه من العيش فى ظلال المجد والعزة ، وإباء الضيم ، وما قاموا به من نشر رسالة الإسلام ورفع رايتها ، حتى أظلت هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ، فكان لها أعظم الأثر فى تقدم شعوبها ونهضتهم ، حتى حل بأراضيهم المستعمر الغاشم ممثلا فى شعوب أوربا ، فنال منهم ، وأنزل بهم كثيرا من ألوان الظلم والعسف والاضطهاد ، ونال دينهم وثقافتهم وآدابهم وتراثهم . وما تلك الدراسة التى نقدمها بين يديك إلا وسيلة من وسائل النهضة بالطفل وبأدبه ، وتبصير القائمين على تنشئته بما نطمح أن يكون طفلنا عليه من الانتماء لأمته والنشوء على حبها والعمل على رفعتها وعزتها دائما ، لنعيد اتصال الماضى المشرق بالحاضر الناهض والمستقبل الزاهر الذى نتوسم فيه الخير ، إن شاء الله تعالى .

(هـ) ونجد كذلك فى تراثنا قصص الكرم والبطولة . فنجد لدينا مثال الكرم العربى حاتما الطائى .

وقصص كرمه وجوده كثيرة ، ويتصل بها قصص بعض آبائه حيث شهر بعضهم بذلك من قبل : فلم يكن يبقى لنفسه على مال جراء كرمه وإنفاقه كل مالديه على من يراهم مستحقين لذلك . ولدينا هرم بن سنان الذى مدحه زهير بن أبى سلمى الشاعر

الجاهلى الحكيم كثيرا ، لِمَا تحمل من ديات قتلى حرب داحس والغبراء . وكما امتدحه زهير بذلك امتدح غيره [حصن بن حذيفة] مصورا كرمه الوافر قائلا :

تـــراه إذا مـــاجئته متهـــلّلا كأنّك تعطيه الذى أنت نائله

أما قصص البطولة ففى مقدمتها ما يروى بطولة عنترة العبسى . وثمة فضائل أخرى كثيرة يمكن لنا أن نقدم للطفل حولها قصصا من تراثنا العربى الخالد ، كمثل ما يرويه الفرزدق عن جده « صعصعة » محيى الْمَوْءُدات . وفى مثل هذه القصة أو الرواية نجد العطاء والكرم يتعانقان مع إكبار إنسانية الإنسان واحترام آدميته ، وهو ما سنتوقف عنده .

وكذلك نجد قصص المحبين من الشعراء ، تلك التى تجسد لنا عاطفة من أرقى عواطف الإنسان ، وأكثرها تحققا وتواجد لديه ، إذ على أساسها تقوم الحياة وتستمر إلى ما شاء الله ، والطفل – لا شك – يأنس فى صغره ، وعندما يشارف تخطى مراحل الطفولة إلى مرحلة الشباب – عندما يستمع إلى قصص تتناول هذه العاطفة ، على أن تكون مبسطة مجملة خالية من الإثارة فى الصغر ، مهذبة مقومة ملتزمة بالحفاظ على الأخلاق الرفيعة . كان ذلك إجمالا ، وإطلالة عامة على مجموع ما سنعرض عليك فيما بعد ، مما ينضوى تحت الجزئيات التى سقناها إليك آنفا ، ويمكن بلورة هذا فى مجالين: النثر ، والشعر ، مع ملاحظة المقولتين التاليتين :

(أ) إن موهبة الكاتب المتوجه بكتابته للأطفال لا تكفى ، إذ لابد أن يضاف إليها معرفة بخبرات وتجارب الآخرين .. ويمثل التراث ينبوعا خصبا لهذه الخبرات وتلك التجارب ، ويمكن أن يفيد الأطفال بأن يعمق لديهم البعد الإنسانى حينما يربطهم بتجارب وخبرات الأجداد ، ويرسخ قيم ، وتقاليد الأمة .

(ب) إن الأطفال لا يعيشون بمعزل عن التاريخ الأدبى ؛ لأنهم جزء من حركة نمو الحياة ووجدانهم يصاغ ويتشكل من معين لأدب الإنسانى . من هنا كانت أهمية تكوينهم الفنى والأدبى ، وقيام هذا التكوين على أساس من التراث الأدبى ، وسيتضح هذا خلال الصفحات التالية ، والتى سأتناول فيها رؤية كل من الناثر والشاعر :

أولاً : الناثر ورؤيته تجاه عالم الطفل :

١ – من مظاهر الاهتمام بالطفل لدى العرب :

نجد فيما وصل إلينا من أدب العرب حرصهم على أن يكون فى البيت أطفال ، ومن ثم كان الواحد منهم يحرص على أن تكون زوجته منجبة ، فإذا وضعت الطفل صارت

لها مكانة عظيمة لدى زوجها وذوى قرابتها ، وبالطبع فإنها تزداد إعظاما إذا ما تكرر ذلك ، وبخاصة إذا كان أطفالها أصحاء أقوياء ، يبشر مقدمهم بعزة أسرتهم ، وارتفاع ذكر أبيهم وقومه .

ولا عجب بعد ذلك أن كان الواحد منهم يبحث لنفسه عن المرأة الصحيحة القوية الشريفة ليتزوجها ، ليكون منها أطفاله وذريته ، بل إنه يحكى عنهم بعض أشياء كانوا يراعونها فى حياتهم الزوجية ليأتى أبناؤهم أصحاء الأجسام[1] . ولا شك أنه من وراء ذلك كله الحرص على أن يكون للأسرة الابن الصحيح الذى ينفعها بعد ذلك شابا ورجلا . ومن هنا يأتى الافتخار بالأم ، فهذا جعفر بن علية الحارثى يمتدح الأم الحرة وما تنجب من أبناء ؛ لأنهم سيكونون قد أرضعوا لبان العزة والحرية .

يقول :

لا يكشفُ الغمَــاءَ إلا ابنُ حرة　　　يرى غَمَراتِ الموتِ ثم يزورها ..

ويفخر القتّال الكلابى بأمه عَمِرة بنتِ حرقة ، من ربيعة ، فيقول :

أنا ابن أسماء أعمامى لها وأبى　　　إذا ترامى بنو الأموان بالعار[2]

وقد كان يفخر بحرية الأم عامة . فالشنفرى ، وهو من الصعاليك يقول :

أنا ابن خيار الحى بيتا ومنصبا　　　وأمى ابنة الأحرار لو تعرفينها

واشتهر عن السموأل بن عادياء اليهودى قوله :

صَفَوْنا ، فلم نكـدر ، وأَخلص سرّنا　　　إنـــاث أطـــابَت حَمْلَنا وفُحُولُ

عَلَوْنـا إلى خـــير الظهـــور وحَطّنا　　　لوقتٍ إلى خـــير البطــــون نزولُ

ولقد فخر الرسول ﷺ نفسُه ، وهو سيد الأشراف ، قائلا يوم حنين :

« أنا ابن العواتك من سليم »[3] .

وقد جاء فى شعرهم الافتخار بالأم المنجبة ، فقال قائلهم :

أبى لَهَم أن يعرفوا الضَيْمَ أنّهُم　　　بنــو ناتـق كانت كثيرًا عيالُها[4]

---

(١) انظر : المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد الحوفى ص ١٣٣ ، ١٤٤ ومن ذلك : أنهم كانوا يتحامون الحمل قبيل الحيض وبعده ، إلى غير ذلك مما يؤكد الأطباء المتخصصون صحته الآن .

(٢) انظر : السابق ص ٩ ، ٨٠ . الإموان : جمع أمة .

(٣) انظر فى ذلك وما قبله المرجع السابق ص ٨٠ ، ٨١ والعواتك جمع العاتكه وهى المرأة التى بها ردع الطيب ، أو من [عتكت] إذا شرقت ، أو العواتك بمعنى الكاملات فى النسب والحسب :

(٤) الناتق : الكثيرة الإنجاب .

وافتخر لَبيد بجدته أم البنين مُسْمِعًا بفخره النعمانَ بن المنذر فقال :

نحـــن بنـــو أم البنين الأربعهْ ومن خيـــار عامر بن صعصـعهْ[1]
المطمعـــون الجفنةَ المُدَعْدَعَهْ والضاربـون الهامَ تحتَ الخيضَعَهْ

ومعروفة قصةُ فاطمةَ بنتُ الخُرْشُب الأنْمارِيّة ، تلك التى ولدت زياد العبسىّ الكَمَلَةَ ، وهى التى يبدو من إجابتها من سألها عمن تفضل من أبنائها إذ تقول : ثكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل . هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها – نقول : يبدو من هذه الإجابة أنها لم تكن تخص أحد أبنائها بما تضن به على الآخر من إحسان التنشئة ، والرعاية والشفقة ، والحب ، إلى غير ذلك . وهو أدعى لأن يكون الأبناء أقوياء متحابين . وهو ما جاء الإسلام من بعد ، فحضّ عليه . وقد كانت فاطمة هذه موضع إعجاب قيس بن زهير العبسى ، فهى أنجبت أُسُودًا بواسل لا عهد للبشر بهم : يقول قيس :

لعمرك ما أضـــاع بنو زيـــاد دمـــاءَ أبيهِمُ فيمَن يضيـــعْ
بنو جنيـــة ولـــدت سيوفـــا صَوَارِمَ كلُّها ذَكَـرٌ صَنيعُ[2]

ومن الثابت أن العرب كانت تعد من العار أن تقصر الأم فى تربية أبنائها والاهتمام بهم وبراحتهم ، منذ أن يكونوا فى المهد .

وهذا هو الجاحظ يقدم لنا انتقادا لبعض سلوكيات الأمهات نحو أبنائهم ، وهم فى المهد حينما يبكون بكاء شديدا : « فإذا كانت الأم جاهلة .. حركته فى لمهد حركة تورثه الدوار ، أو نومته بأن تضرب بيدها على جنبه . ومتى نام الصبى ، وتلك القرعة أو اللوعة أو المكروه قائم فى جوفه ، ولم يعلل ببعض ما يُلهيه ويُضحكه ويسره ، فإن ذلك مما يعمل فى الفساد . والأم الجاهلة ، والمرقصة الخرقاء إذا لم تعرف ما بين هاتين الحالتين كثر منها ذلك الفساد وترادف ، حتى يخرج الصبى مائقا »[3] . إن لمرأة العربية لا شك أنها راعت ذلك قديما ، وراعت أن تعتنى بصحة طفلها وغذائه . وجاء الإسلام فأضفى على ذلك من رحمته وعنايته – شأنه فى ذلك شأنه مع الإنسان بعامة – بما أضفاه ، مما سنقف على بعض منه ، فى صفحات تالية من هذا الكتاب .

---

(١) المدعدعة : الملأى – الخيضعة : غبار الحرب .
(٢) انظر : المرجع السابق ص ١١٥ . والنص فى الحيوان للجاحظ ٣٨٦/١ .
(٣) انظر فى ذلك وما سبق : المرجع السابق ص ٨٦ ، ٨٧ .

وهى مع عنايتها بصغيرها تحرص على أن تظهر ذلك فى كلامها ، وهو فى حضنها ، وبين يديها ، تداعبه ، وترقصه ، سعيدة به ومغتبطة ، وباعثة للفرحة والسرور فى نفوس بنيها الأكبر سنا من حولها . ومما جاءنا من الشعر على ألسنة الأمهات وهن يرقصن أطفالهن ما قالته ضباعة بنت عامر بن قرط ، ترقص ابنها المغيرة بن سلمة :

نمـا به إلى الذّرى هشـــام   قِرْمٌ وآبـــاءٌ لَهُ كِـــرَامُ
حَجاجِج خضَـــارِمٍ عِظَامٌ   مِن آل مخزوم همُ الأعلامَ
الهامة العلياء والسنام

وكانت الشيماء بنت السيدة حليمة السعدية ، أخت النبى - ﷺ - فى الرضاعة ترقّصه ، لأنها كانت تحضنه مع أمها تقول :

هذا أخٌ لى لـم تِلـدْه أمىّ   ليسٍ مِن نسـل أبِى وعمّى
فأنِمْهِ الّلهُمّ فيما تنْمِى

وأم الفضل بنت الحارث الهلالية تتمنى لطفلها عبد الله بن عباس أن يسود العرب ، فتقول :

ثكلت نفسى وثكلت بكــرى   إن لم يسُــــد فِهْرًا وغيرَ فهْرِ
بالحَسَبِ العـــدّ ، وبذْلِ الوَفْرِ   حتّى يُوَارىَ فى ضَريح القبرِ(١)

ونكتفى بذلك فى هذا الجانب من جوانب الاهتمام بالطفل . ونندلف بك إلى معين أدبى ثرّ ينبغى أن يوضع نصب العين عند الكتابة للطفل ، أو تقديم مادة أدبية وتربوية له ، ينشأ على النهل منها .

٢ - مصادر أدب الطفل فى تراثنا :

(أ) من الأمثال نقدّم لك ما يأتى :

١ - فى بعض قصص الحيوان ، تأتى على ألسنته عبارات ، تؤخذ أمثالا ، وتشيع بين الناس فى المواقف المشابهة لما قيلت فيه ، أو بالأحرى تصلح لأن تكون كذلك .

من ذلك أن الأرنب وجدت ثمرة فاختطفها منها الثعلب ، فذهبا ليحتكما إلى الضب [وهو حيوان جبلى يشبه العظاءة] وذلك بعد أن لطم كل مهما الآخر . ويقف الأرنب

---

(١) انظر فى هذا وما قبله : المرجع السابق ص ١١٧ ، ١١٨ . ومنه أيضا ما أورده ابن برى المصرى فى كتابه التنبيه والإيضاح ، الجزء الثانى ، عن أبى عمرو بن العلاء أن امرأة من اليمن كانت ترقّص ابنها قائلة :
يا ربّنا مَن سره أن يكبرا   فسُق إليه ربِ مالاً خيّرًا « أى كثيرا » [ص ١١٣] .

مناديا الضب : يا أبا الحسل [والحسل ولده] فقال : سميعًا دعَوْتِ . فيقال الأرنب : جئناك نحتكم إليك ، فقال : عادلاً حكَمتَما . فيقول الأرنب : اخرج إلينا . تقال الضب : فى بيته يَؤْتَى الحَكَمَ !

فيقول الأرنب إنى وجدت ثمرة . فيكون رد الضب : حلوة فكليها

ويستمر الحوار بينها كما يلى :

– فاختطفها الثعلب .

– لنفسه بغى الخير !

– فلطمته .

– بحقك أخذت !

– فلطمنى .

– حر انتصف !

– فاحكم بيننا .

– قد حكمت !

قال راوى القصة . فذهبت كل هذه المقولات الحوارية أمثالا[1] .

وربما كان إقرار الضب هذه الطريقة فى التعامل بين الأرنب والثعلب مناسبا لحكاية ما فى عالم الحيوان من أن القوة فيه هى التى تحكم العلاقات بين أفراده ، وهو كذلك تمثيل إلى حد ما لما كانت عليه العلاقات بين الناس فى المجتمع الجاهلى . ومن هنا تأتى الدقة فى نهاية القصة : [قد حكمت] . وبها يستبين أن الضب قد أقر ما حدث . فليس ثمة داع للاحتكام إلى القضاء ، بل لابد من الخضوع لهذه الطبيعة الصراعية التى تفرض نفسها على معاملات الناس فى المجتمع . ولئن كنا لا نرضى بهذه الخاتمة ، ولا نُوصَى بما تشير إليه ليعلّم للأطفال ، إذ هو ضد ما ينبغى أن يعرفوه عن ضرورة وجود العدل والتواصى بالحق ، فإن فى قصنا عليهم مثل هذه القصة ، بما تركز عليه من ضرورة مغالبة المعتدى ، وعدم الاستسلام له ، ومواجهة الحياة ومشاكلها فى قوة لأن الدنيا تؤخذ غلابا ، كما قال أمير الشعراء – فى ذلك فائدة كبرى ، وتنمية للخيال ،

(١) انظر مثل هذه القصص فى مجمع الأمثال للميدانى .

وبخاصة ، عندما تقص هذه القصة بأمثالها للطفل فيما بين الخامسة والثامنة . ويمكن أن تقدم له فوق هذا . وبالطبع ستكون فى لغة مأنوسة له ، متخففة من هذا التقديم والتأخير الذى فى حوارها ، كما ستكون غير متلوة بهذه الأهداف التى عقبنا بها عليها ، لأنها أقرب لأن تقدم للطفل الذى تعدى الثامنة وكلما تقدمت السن كان تقديم ذلك له مسبوقًا بالقصة وأمثالها فى لغتها الأصلية شيئًا طيبًا . وسوف نهتم أكثر بقصص الحيوان فى الفقرة (ب) من هذا المبحث .

٢ – فى المثل : « على أهلها تجنى براقش » وقد قالوا فى مورده « براقش » : كانت امرأة لبعض الملوك ، فسافر الملك واستخلفها . وكان لهم موضع إذا فزعوا دخنوا فيه . فإذا أبصره الجند اجتمعوا ، وإن جواريها عَبَثْنَ ليلة فدخّن ، فجاء الجند ، فلما اجتمعوا قال لها نصحاؤها : إنك إن رددتهم ولم تستعمليهم فى شىء . فدخنتم مرة أخرى لم يأتكم أحد ، فأمرتهم فبنوا بناء دون دارها . فلما جاء الملك سأل عن البناء فحدثوه القصه فقال : « على أهلها تجنى براقش » .

وقيل غير ذلك فى سبب قول المثل . فقيل إن براقش كانت امرأة لقمان بن عاد . وكان له ابن منها . نزل الاثنان فى أهل براقش ، فأولموا ونحروا الجزر . فلما ذاق لقمان لحمها عندما وجده مع ابنه ، قال : أى بنى ، ما هذا ؟ فما تعرقت قط طيبا مثله فقال : جزور تحرها أخوالى . فقال : وإن لحوم الإبل فى الطيب كما أرى ؟ فقالت براقش جَمَّلْنا واجْتَمِل[1] .

فصادر قولها ذلك مثلا . وأرادت به أطعمنا الجميل ، وأطعَمْ أنت منه . قيل : وكانت براقش أكثر قومها بعيرًا ، فأقبل لقمان على إبلها ، فأسرع فيها وفى إبل قومها ، وفعل بنو أبيه ذلك لما أكلوا لحوم الجزر . عندئذ قيل : على أهلها تجنى براقش . وصار هذا مثلا يضرب لمن يعمل عملا يرجع ضرره إليه .

ومما قيل غير ذلك فى مورد المثل : أن براقش اسم كلبة لقوم من العرب ، أُغيرَ عليهم ، فهربوا ، وتبعتهم براقش فرجع المغيرون خائبين إلا أنهم اخذوا فى طلب هؤلاء القوم ، فسمعت براقش وقع حوافر خيلهم فنبحت ، فما كان إلا أن استدلوا بنباحها على مكان غرمائهم ، فأسرعوا إليهم واستباحوهم . فهذه صورة محببة للأطفال .

---

(١) جملت اللحم واجتملته : أى أذبته . وجمل . بالتشديد للكثرة والمبالغة . ويضرب المثل لمن وقع فى خصب وسعه . وانظر عن مضرب المثل : التكملة لصحاح الجوهرى للصغانى جـ٣ ص٤٥٤ ، ٤٥٤ وأيضًا : مجمع الأمثال للميدانى ١٦٧/١ ، ١٤/٢ .

وذكر أن أبا عبيدة قال : إن سبب قول هذا المثل : أن براقش كانت ابنة لملك قديم ، خرج لبعض مغازيه واستخلفها على ملكه . وأشار عليها بعض وزرائها أن تبنى بناء تذكر به ، فبنت موضعين يقال لهما : براقش ومعين . ويأتى أبوها ، فيستنكر ما صنعت قائلا لها : أردت أن يكون لك الذكر دونى ؟ ثم يأمر الملك الصناع الذين بنوا لموضعين أن يهدموهما[1] .

وقد ذكر بعض الشعراء ذلك المثل فى شعره ، فقال[2] :

لم يكن عن جناية لحقتنى ... لايسارى ولا يمينى جنتنى
بل جناها أخ على كريم ... وعلى أهلها براقش تجنى

٣ – من أمثالهم أيضًا : « مالى ذنب إلا ذنب صحر » . قالوا إنها امرأة عوقبت على الإحسان . وقال ابن برى : إنها بنت لقمان العادىَ ، وكان لقمان وابنه خرجا فى إغارة ، فأصابا إبلا ، فسبق الابن منزله ، فنحرت أخته « صحر » من غنيمته جزورا ، وصنعت منها طعامًا تتحف به أباها إذا قدم . فلما قدم « لقمان » قدمت له الطعام ، وكان يحسد « لقيما » فلطمها ، ولم يكن لها ذنب »[3] .

٤ – ومن ذلك ما يروى أيضًا بشأن المثل : « جزاء سنمار » أو جوزى جزاء سنمار « وهو من الصناع والبنائين المهرة ، بنى للمناذرة ، فيما تحكى قصة مضرب المثل أحد قصورهم . فكان أن ألقى من فوق ؛ لئلا يقيم مثله لغيرهم ، فكان هذا أيضًا مالا لمجازاة الإحسان بالإساءة ، مثلما تقصد إليه قصة المثل السابق . ولابد أن يقارن بين هذا المثل وسابقه وبين ما تحض عليه الآية الكريمة فى سورة الرحمن : ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ . وذلك مما يدل عليه الاستفهام المفيد للتقرير الذى جاءت على صورته . فمثل هذين المثلين إنما تقص قصتهما للطفل بالصورة التى يستطيع أن يتقبلها ، لتنفيره من مقابلة الإحسان بالإساءة ، وتقبيح موقف من يفعلون ذلك .

٥ – من أمثالهم أيضًا : « تمرد مارد وعز الأبلق » . ويقال إن الزباء الملكة [وكانت أيام سيادة إمارة كندة قبل الإسلام] هى التى قالته لما تأبى عليها حصنا دومة الجندل

---

(١) انظر فى هذه الرواية وسابقتها : التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح لابن برى حـ ٢ ص ٣١٣ . تحقيق عبد العليم الطحاوى .

(٢) الأبيات فى التكملة و ٣ ص ٤٥٥ ، واللسان [برقش] .

(٣) التنبيه والإيضاح ٤ ، ١٤٦ ، والقصة فى اللسان والعباب .

وتيماء ، فلم تستطع أن تقتحمهما ، ولا شك أنه يتمثل به كل شخص يتعرض لاجتماع الصعاب عليه ، وتمنع الرغائب من أن تتحقق له[1] .

٦ – ومن أمثالهم : « سقط العشاء به على سرحان » . وقد جاء ذلك في شعر بعضهم . إذ قال :

أبلغْ غُنْيَمَةَ أنَ راعى إبْلِـــــهِ سقط العشاء به على سَرْحانِ
سـقط العشــاء بـه على متقمّر حامى الذمــار معاود الأقران

ويقال إن هذا مثل لمن طلب خيرًا فوقع فى شر . ويقولون إن أصله أن يكون الرجل فى صحراء . فيعوى لتجييه الكلاب بنباحها ، وعندئذ يعلم موضع الحى ، فينزل فى ضيافتهم .

فإذا سمع أسد أو ذئب عواء هذا الرجل فى الصحراء ، فإنه يقصده فيأكله . هذا تصوير لمضرب المثل الذى تضمنه الشطر الثانى من البيت الأول . وقيل إن [سرحان] اسم رجل من العرب كان معروفا بإغارته على الناس . وبينما كان بعض العرب خارجًا بإبله ليعيشها ، هجم عليهم سرحان فاستاقها[2] .

وهكذا ترى أيها القارئ العزيز أنك قد استفدت حكمة وأفدتها ، وأصبت معها قصة قولها ، وتستطيع أن تنسجها مرة أخرى ، أو تنقلها كما هى إلى الطفل ، مصحوبة بهذا المثل الشعرى ، فتكون بذلك قد نميت إدراكه وعقله ، وصقلت موهبة تخيله ، وأفدته اللغة التى تعبر له بها عن فحوى القصة والمثل ، وكلما تقدمت به المرحلة العمرية ازددت اهتماما بالصياغة الفصيحة ، دونما تقعر وإغراب فربطته ، بلغته وحببت إليه أدبها . وهكذا يوضف أدب الكبار لخدمة الصغار ، ويبسط لهم ، حتى يعتادوه عندما يكبرون . وهو ما كان يعول عليه قديما قبل أن يتخصص للكتابة للطفل كتاب الأطفال . لكنهم كانوا يعتمدون على مثل هذه المواد التى نعرضها عليك فيما عليه يعتمدون فى عملهم . ونحن ندعوك كمَربٍ للطفل أن ترجع إلى مثل هذه المصادر لتمتاح منها بعض ما تقدم لطفلك وتصوغه أنت بصياغتك ، أو تنقله فى لغته . حسب الحاجة .

وبعد ، فكتب الأمثال : « كالمستقصى » و« مجمع الأمثال » معين لا ينضب لهذا النوع من القصص والحكايات التى تكون مصاحبة لإيراد المثل . وهى تفيدنا – ولا شك

---

(١) انظر السابق ص ٣٥ .

(٢) السابق ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

– فى مهمتنا بما توفره لنا من مادة من الحكم والقصص التى لنا أن نسوقها للطفل حسبما يتيسر له فهمه ، كما سبق ، أو أن نقارن بينها وبين ما بنى أساسًا منها من أدب الأطفال .

(ب) قصص الجان ومعتقدات العرب :

فإذا ما جئنا لنتحدث عن قصص الجان وتعلق العرب بها ، ومبالغتهم فى تصوير سيطرتهم على كثير من الأماكن والوديان ، وقدراتهم ، وكذلك الخرافات والأساطير التى كانت لديهم ، ومنها ولاشك قصص الحيوان ، التى تبرز اهتمامهم به – آخر ذلك – فإنا سنجد أيضًا مادة خصبة ثرية فى تراثهم ، لايمكن أن تغفل بحال ، عندما نبحث عن مصادر لأدب طفلنا العربى .

١ – فى معاجم اللغة : العسر ، بكسر العين وفتحها : قبيلة من قبائل الجن . وفسر بعضهم ما جاء فى قول الشاعر :

وفتيـــان كحنة آل عسر إذا لم يعدل المسك القتارا

على أن المراد بـ [عسر] أنها من قبائل الجن . وقيل إنها أرض تسكنها الجن[1] .

٢ – كما جاء فيها أيضًا أن السعلاة [الغول] سميت عيسجورا من العسجرة ، وهو الخبث[2] . والغول من الكائنات الوهمية ، أو هى من المستحيلات ، كما قالوا . لكن العرب قديما اعتقدوا ، أو لنقل تخيلوا وجودها كائنا جنيا يمثل به لقوة خارقة يرهب أذاها ، ويتحرى اجتنابها .

وكانت لهم حولها وحول الجن قصص خيالية . منها زعم الشاعر الجاهلى « تأبط شرا » ، أنه أمسك بها ، وكانت على هيئة كبش ، ثم إنها أفلتت من بين يديه ، وأنه لقب بتأبط شرا لما روى ذلك . وزعم أنها طلبت منه أن يتزوجها . وهى عند العرب تلون ، ولاتثبت على طبيعة واحدة . وقد مثل كعب بن زهير « سعاد » فى أول قصيدته المشهورة التى امتدح بها رسول الله – ﷺ – بأنها كالغول تتلون كما تتلون فى ثيابها وذلك لكثرة إخلافها وعده باللقيا .

وإذا كان تأبط شرا زعم أن الغول أرادته زوجا لها ، فإن الدراسات الحديثة ترى ذلك مظهرًا من مظاهر الأساطير فى أدبنا العربى القديم وقد صار له امتداد قوى عبر التاريخ

---

(١) السابق ص ١٩٢ ، ١٩٣ .
(٢) التكملة ٣/ ١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .

العربى ، وصل إلى أيامنا ، حيث كنا نسمع فى قرانا عن زواج الرجال بالجنيات ، وما شاكل ذلك من قصص وخوارق للعادات تنسب إلى الجن : مثلما كان يفعل العرب الأقدمون وذلك عند دارسى الأدب من مظاهر « الأدب الشعبى » ، وهو الذى يهتم بدراسة انطبعات الإنسان الفطرى عن الطبيعة وعلاقة الكائنات بها ، وضعف الإنسان أمامها ، وأمام الجان ، وتعبيره عن ذلك فى صورة روايات وقصص شعبية ، تكون سيارة عبر العصور ، يزاد فيها وينقص منها حسب هوى السامعين ، وحسب مقدرة الراوى واتجاهه . ولاشكَ أن لذلك كله اتصالا وثيقا بهذا التراث العربى الذى نشير هنا إلى بعض مما جاءنا به هذا المجال وغيره .

٣ – وقد سموا الغول أيضًا : العفرناة[1] .

٤ – وعبقر : موضع تزعم العرب أنه من أرض الجن . ومنه قول لبيد :

ومن فاء من إحواتهم وبنيهم　　　كهـول وشبـان كجنـة عبقر

وقريبا منه ما نجده لدى الأعشى عندما يصف جند بكر فى جربهم الفرس يوم ذى قار بأنهم « جِنَّانُ عَيْنٍ » ، أى جن تسكن عين ماء أو بالقرب منها ، وكان ذلك للاعتقاد فى شدة قوة مثل هؤلاء الجن .

٥ – ونجد فيما لدينا من تراث العرب ماروى عن بعض الشعراء – شمر بن الحارث الضبى ، أو تأبط شرا – أنه استضاف الجن بعد أن رأوا ناره ، التى كان يشبها العربى قديما لتهدى الضالين فى الصحراء ، وترشد طالبى القِرَى والراحة من المسافرين ، وبعد أن عرض عليهم الشاعر القِرى حدثهم وحدثوه . ومن هذه القطعة الشعرية التى تصور أحداث هذه القصة ، نقف على هذه المعلومات :

ونـارٍ قد حَضَـأت[2] بُعَيْدَ وهْـن　　　بـدار مـا أُردتُ بهـا مقـامـا
أتوا نـارى ، فقلـت : منونَ أنتم ؟　　　فقالوا : الجن، قلت : عِموا ظَلامَا
فقلـت : إلى الطعام ، فقـال منهم　　　زعيمٌ : نَحْسُـدُ الإنـس الطعـامَا

وجاء فى كتاب بعنوان « خبر سد مأرب » جملة أبيات لشاعر يدعى « خرع بن سنان الغسانى » ، تحدثنا عن مثل هذه القصة فى الأبيات السابقة . ومما قال هذا الشاعر[3] :

(١) التكملة ٣/١٢١ .
(٢) حضأت : أشعلت .
(٣) السابق ص ١٩ والبيت الأخير يدل على اعتقاد العرب فى علم الجن الغيب . وقد حدث القرآن بأنهم كانوا يسترقون السمع قبل البعثة ، فلما بعث الرسول ﷺ – منعوا من ذلك ، وسلطت عليهم الشهب .

نزلـــتُ بشِعبِ وادى الجِـــنّ لَمَّـــا رأيْتُ الليـــل قد نشـــر الْجَناحَا
أتـــانى قاشِـــرٌ وبنـــو أبيــــه وقد جَنَّ الدُّجَى ، والنجمُ لاحَـا
وحـــدثنى أمـــورًا ســـوف تأتى أَهزُّ لهـــا الصـــوارمَ والرِماحَا

وقد عقب ابو محمد عبد الله بن برى المصرى على هذا الشعر والذى قبله بقوله :

« وهذا كله من أكاذيب العرب » . وتعقيبه هذا يذكرنا بمثل ما كان يحدث عنه المبرد فى كتابه الكامل فى اللغة والأدب ، على أنه [من تكاذب الأعراب] أى تبادل خلق الروايات والقصص الخيالية وإن لم تكن عن الجن ، لكنها تدل على أنه كان للعرب خيالاتهم التى فرضتها على تصوراتهم بيئتهم الصحراوية ، بما كان يكتنف العيش فيها من المخاطر ، والخوف المسيطر على القلوب ، والذى دفع إلى التشبث بآراء ومعتقدات حول الجن وقدراتهم الفائقة على السيطرة والأذى وجلب المنفعة إن أرادوا ، لأنهم كانوا – كما فى اعتقاداتهم – يسيطرون على الوديان ، ويكون لواحد من زعمائهم السيادة على واد بعينه ، ومن هنا كان الواحد من العرب يستعيذ بسيد الوادى المعين من الجن ، ويلوذ به ، ويجعل نفسه فى حمايته ، خوف أذى أتباعه ، وذلك عندما يمسى منفردًا ، أو يكون خائفًا أثناء رحلة أو سفر .

وهذا التعقيب السابق لابن برى ربما يفيد أيضًا أن عامة الناس يتداولونه ، وهو واقع ، ولا شك يعضده ما يتناقله العامة فى ايامنا أيضًا عن الخوارق المنسوبة إلى الجن ، وذلك من خلال أحوالهم . وأوصافهم عما ينتاب الإنسان عندما يراهم ، وما قد يكون من علاقة بينه وبينهم ! وهذا كله ما يتحاشى العلماء والمحققون الخوض فيه لا بقدر ما تتيحه المعرفة اليقينية عن عالم الجن . فالمادة فى مثل هذه الأحاديث مما يتناوله دارسو « الفلكلور » ، أو الباحثون فى « الأدب الشعبى » . وهى كما نرى مادة ثرية تؤخذ منها قصص الأطفال التى تنمى خيالاتهم ، وتحيطهم علما بأن ثمة عوالم أخرى وكائنات موجودة فى محيط حياتنا وفى غيره . ولا شك أن المستحسن أن نقص مثل تلك القصص للطفل دونما خلط كبير بين عالم الخيال وعالم الحقيقة ، على ما سنوضحه فيما بعد .

٦ – ويتعلق بذلك ما اعتقدوه أو ما صوروه على أنه كذلك من أن للشعراء شياطين يمدونهم بالشعر ، ويسعفونهم بما يحتاجون إليه من المعانى . وقد اتضح إلى حد كبير أثر هذه الفكرة فى صياغة بعض الأعمال الفنية التى اتخذت شكلا من أشكال القصص فى القديم ، ونعنى بذلك رسالة « التوابع والزوابع » لأبى عامر بن شهيد الشاعر

الأندلسى . وكلمة [التوابع] تعنى الجان وهى جمع تابع و [الزوابع] جمع [زوبعة] بمعنى رئيس الجان . و« التوابع » مراد بها توابع الشعراء ، أو شياطينهم الذين كان يزعم أنهم يقذفون بالشعر ليقال على السنتهم ، ولاشك أن العرب قديما كانوا يعبرون عن الطبع المواتى ، والملكة الحاضرة والفطرة الشاعرة ، بأنها شيطان ، وذلك لاعتقادهم فى المقدرة الفائقة للجان والشياطين . وابن شهيد فى رسالته تلك يلتقى بشياطين الشعراء ونقادهم ويعرض عليهم شعره ، وذلك فى رحلة خيالية . يشهد له خلالها بالبراعة والتفوق . وهى لاشك رحلة يحسن أن تكون من بين مصادرنا التى نستقى منها أدب طفلنا العربى ، ويمكن أن تعرض له مجزأة ، أو موجزة ، فى أسلوب يناسب فهمه ومقدرته اللغوية ، ومن خلالها يطلع على بعض من شعر ابن شهيد وغيره ، وبذلك نكون قد رغبنا الطفل فى الشعر والأدب بجانب تسليته ، وإطلاعه على القوانين التى تنظم الحياة من خلال القراءة .

وليست « التوابع والزوابع » وحدها هى الأثر الأدبى الذى نرى فيه هذه الفكرة الخيالية واضحة ، بل إنا نجد أثر ذلك واضحا ايضا فى روايات بعض الأدب ، مثلما هو الحال فى كتاب جمهرة القرشى [أو بالأحرى المنسوب له] ، وكذا فى غيره ، حيث تروى أبيات شعرية على لسان شيطان ، أو ما كان يحسب شيطانًا ، فإذا به إنسان ، وهكذا ومثل هذا ينظر إليه دارسو الأدب حديثًا على أنه من « الأساطير » فى أدبنا .

٧ – وكما اهتم العربى بالجن اهتم بالحيوان ، فوصفه ، وتتبع مراحل حياته وكل ما يتصل به ، بل ربما يكون قد تسمى باسم أجناسه بأثر من تقديسه وعبادته فى أزمنة غابرة ، على ما يقول علم الإنسان فنحن نجد مثلا قبيلة كلب ، وعجل ، وضبة . وما لنا نبعد بعيدًا ، ولدينا قبيلة « قريش » التى سادت قبائل العرب فى الجاهلية ، وإنما سميت قريشًا باسم سمكة القرش ، وجاء ذكرها هكذا فى التراث وورد اسمها مصغرا . وفى بعض المعاجم[1] : أن القرش دابة من دواب البحر تغلب سائر الدواب . يفهم هذا من ذكر البيت التالى :

وقريشٌ هى التى تسكن البحـر بهـا سميت قريشٌ قريشـا

وعلى ذكر من قول علماء علم الإنسان إن الناس فى فجر البشرية تعلقت بالحيوان وعبدته ، نشير إلى ما يروى عن أن « نسرا » – ومعلوم أنه جنس من الطير – عبده قوم

(١) التكملة ٣ / ٥٠١ .

نوح فيما عبدوا . قال الله تعالى على لسان نبيه نوح متضجرًا من قومه ، حاكيا عنهم أقوالهم ﴿وقالوا لا تذَرُنّ آلهتكم ولا تذرن وَدًا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرًا﴾ [سورة نوح/ الآية ٢٣] .

وقد جاء أن يونس بن حبيب سأل أبا الدُّقَيْش – وكلاهما من رواة اللغة – عن السبب في تسميته بذلك ، فلم يدر له علة ، وقال هي أسماء نسمعها فتتسمىّ بها . لكن غيره من أهل اللغة قال : إن الدُّقَيْش طائر أغبرَ أرقَط معروف عندهم . وقد أنشد يونس[1] :

يا أمَتَاه أخْصِبِى العشــيه   قد صدت دقَشائمَ سندريَةْ

والعربى القديم كانت علاقته بالحيوان جد وثيقة . فهو يصف الفرس والناقة ، فيجيد ويبرع ، مصورا لنا مالها عنده من قيمة كبرى .

فعلى الأول يقاتل ، وبواسطته يصيد ، وليس ببعيد عن الذهن وصف امرئ القيس بن حجر الكندى لفرسه ، ومباهاته بقوته وصبره ، وسرعته التى صورها تصويرا دقيقًا فى هذا البيت الشائع على الألسن .

مكـر مفــر مقبـــــل مدبر معــاً   كجلمود صخرحطه السيل من عَل

ومعروفة قصة بكوره إلى الصيد راكبا فرسه الذى وصفه بأنه :

كَمَيتٌ يزِلَ اللِّبْدُ عن حـال مَتْنِه   كمـا زلَـت الصفــواءُ بالـمتنزِلِ

وبأنه :

يزلّ الغلام الخِفُّ عن صَهَـواته   يلـوى بأثــواب العنيف المثقل

أقول : هذه القصة لا شك أنها تصلح لأن تنثر للطفل فى عبارة سهلة سلسة لتطرق أذن الناشئ وتقر فى وجدانه الغض ، فتبعث فى نفسه حب النشاط ، والتطلع إلى الفروسية عندما يشب عن الطوق .

وأكثر من ذلك تحبيبا للطفل فى الشجاعة والإقدام ، وإطلاعا على تاريخ الفوارس من العرب ، واعتمادهم فى معاركهم مع الأعداء على الجواد العربى الأصيل – أن نحدثه عن فرس عنترة بن شداد العبسى ، ذلك الشجاع الذى انتزع بفروسيته وبما كان يبليه فى المعارك ذَوْدًا عن بنى قومه – انتزع بذلك الاعتراف بحريته وسيادته ، التى كان أنكرها عليه أبوه لسواد لونه ، وكانت شجاعته تلك مضرب الأمثال ، بل جزءا منه ينظر إليه الآن على أنه يمثل التراث الشعبى فى الأدب العربى ، وذلك لسيرة قصته على الألسنة ،

(١) كتاب التنبيه والإيضاح عما وقع فى الصحاح ٢/ ٣١٨ .

ودخول عروق من الخيالات والإضافات إليها على ألسن الرواة فى كل الأزمنة على ما قد يتاح لنا ثانية أن نتعرض له ، والذى نريده من ذكر كل هذا ، أن عنصر الخيال متوافر فى هذا الأدب ، الذى يدور حول الجن ، ومعتقدات العرب حولها ، بشرط أن نحسن توجيه هذا الخيال لصالح تنمية مواهب الطفل ، وقدراته وإمتاعه ، ثم الأخذ بعقله الصغير ؛ كى يدرك بعض الحقائق الباهرة .

٣ – الوصايا وأدب الطفل :

الوصايا : جمع وصية ، وهى أشياء ثمينة يتركها الآباء لأبنائهم ، أو إلى من يهمهم أمرهم ، وينتفعون بها .. وأغلى شىء يقدمه الآباء لأبنائهم هو خبراتهم وتجاربهم ووصاياهم المشفوعة بكلماتهم المجربة الخبيرة والمفعمة بالعواطف ، والمقاصد النبيلة ، والخالصة من النفاق والتقرب والمداهنة ، وذلك كما هو مفطور عليه عالم الآباء والأمهات : فعلاقة الآباء والأمهات بأبنائهم لا تقوم على حقيقة واحدة مفردة ، وإنما على توحد حار جدى ومطلق موصول بالخبرة والتجربة وفى الوقت نفسه خال من وجهات النظر .. حيث يمضى الزمن سريعا بالآباء ، فيتغير كل شىء ، وتتبدل الأهداف ، وتتحول وجهات النظر .. لكن حب وعشق وولع الآباء بأبنائهم ، وبمصالحهم ثابت لا يتغير ، وطموح لا يقصر ، وقابل دائما إلى ما يزيده اشتعالا ، وقوة وحنانا وتعاطفا ، ورغبة فى مزيد من النصح والرعاية والدعاء ورغم ما عليه الأبناء – عادة – من عدم اكتراث بما يقدمه الآباء من النصائح والوصايا ، والتجربة المستمرة ، والخبرة المعطاءة . فإن الآباء يحملون بداخلهم صوتا يُهَمْهِمُ باستمرار وأبدا بالنصيحة والموعظة والتوجيه ، والإرشاد والوصية وينطلق لسانهم – مهما كانت أعمار أبنائهم – بكلمات وجمل : « لا تكن » ، « كن » ، « حاذر » ، « احذر » .. والمطلوب من الآباء ، حتى تثمر نصائحهم ووصاياهم ، أن يختاروها اختيارا يتفق ومرحلة نمو الأبناء ، لتبدأ كلمات موحية بالعطف والخوف والحنان ولتستمر عاطفية ، راغبة فى الهداية ولتنتهى عاقلة مبصرة ، بصيرة بالواقع ومطالبه ، على أن يتم هذا كله فى إطار من القدوة الحسنة التى ينبغى أن يكون عليها الآباء .. وهى قدوة طبيعية لا تكلف فيها .. وإنما تقوم على التقريب بين المثال والواقع ومطالبه .. مع التمسك العاقل الرشيد بالقيم والفضائل والحفاظ على الدين وتعاليمه . وتبدأ الوصايا لهذا من البسيط اللغوى وانفكرى ، والقيمى ثم تتطور شكلا ، وموضوعا ، لتصبح عملا إبداعيا فنيا لغويا وتشكيليا ، يستهدف المقاصد والغايات التى تكون فى إطار أطفال

ما دون الشباب ، وهنالك نصائح يقدمها الآباء لأبنائهم فى كل مراحل عمرهم .. حيث يظل الابن فى حالة تلق مستمر لنصائح الأب والأم ، ما داما على قيد الحياة إذن هنالك نوعان من الوصايا حسب مراحل نمو الأبناء ، وسنى عمرهم الزمنى ، وعلى حسب ما هم فيه من حقائق حياتية ، وعلاقات واقعية اجتماعية واقتصادية ويومية ، وهذان النوعان يتمثلان فيما يلى :

١ – نوع يستمر مع الأبناء طيلة حياة الآباء والأمهات ويتنوع هذا النوع بين الحكمة ، وضرب المثل ، والنصح بالكلمة الطيبة ، وبالتذكير بآيات الله سبحانه وتعالى ، وبالحديث الشريف ، وبأقوال الصالحين ، وبالشعر ، والتراث الشعبى وبالأساليب الرفيعة ، وبكل فنون التعبير ، مجتزأة أو تمثيلا بها ، وبما يشاهده الآباء ، ويخبرونه فى حياتهم العملية والمقصود من هذا كله هو التعليم ، وإعطاء المعرفة الحياتية والخبرة اليومية ، وتأمين مستقبلهم ، وعلاقتهم بالآخرين ومستقبلهم من الفشل .

٢ – نصائح ووصايا تقدم للأبناء ، وهم دون عتبات الشباب وهذه الوصايا ، وتلك النصائح ، تستهدف التربية ، وتبصير الأبناء بما قد يحيق بهم من مخاطر ، أو سلبيات ينشأ عنها أضرار تلحق بهم ، وبمصالحهم فى إطار المدرسة أو علاقاتهم بأترابهم .. ويتم هذا كله سواء ما تضمنته النقطة الأولى أو الثانية ، تحت مظلة ثقافة الآباء ، ودرجة معرفتهم ، وفى أطر من خبراتهم وتجاربهم .. حيث المهم هو الصدق القلبى ، وهو متوفر لديهم ، والقدوة الحسنة وهى ما نرجوها من الآباء والأمهات خصوصا فى أزمنة الجفاف ، ومراحل العقم الاجتماعى ، وسأحاول أن أضع بين يدى الدارسين والمربين بعضا من تلك الوصايا والنصائح مع بيان توجهاتها ، واخترنا من التراث هذين المثلين :

(أ) وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس لما حملت إلى زوجها :

أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى النساء عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال ، أى بنية : إنك فارقت الجو الذى منه خرجت ، وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبا ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا .

يا بنية : احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرا : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لمواضع أنفه ، فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدوء عنه عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغصبة . والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التقدير . ولا تفشي له سرا ، ولا تعصى له أمرًا ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى غدره ، وإن عصيت أمره أو غرت صدره ثم اتقى من ذلك الفرح إن كان ترحا والاكتئاب عنده إن كان فرحا فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير . وكونى أشد ما تكونين له موافقة ، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تريدين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك[1] .

تعليق وبيان

هذه امرأة عربية أدركت بفطنتها ، وحسن خلقها ، سر الحياة وفلسفتها ، وضرورة تواصل الحياة واستمرارها ، بما تقتضيه من تزاوج وتناسل ، وما يستلزمه ذلك من أمور تجعل من حياة الزوجين مثالا للحياة السعيدة المثمرة .

إنها امرأة مدفوعة بما لديها من حنان زائد ، وشفقه على ابنتها – إلى أن تخلص لها النصح وأن تقدم لها منخول الرأى والفكر ، لأنها عزيزة لديها ، حبيبة إلى نفسها ، ولها لدى أسرتها وقومها مكانة ومنزلة . وهى لذلك ذات أدب ، لكنه لا يعفى والدتها من أن تقدم لها النصح ، اعتمادا على ما لبنتها من فضل أدب . ذلك أن الوصية تذكرة للغافل ومعونة للعاقل . فهى تقدم النصح لا لحاجة ابنتها الماسة إليه ، ولكن لما اعتيد من اللجوء إلى إزجائه فى مثل تلك المناسبة ، مناسبة البناء بهذه البنت العزيزة على أبويها وأهلها . ثم إنها – تكملة منها لإبداء مدى ترفقها بابنتها ، وإزالة لوحشتها من الانتقالة التى هى مقدمة عليها – تلفت انتباهها إلى أن الزواج هو الطريق الذى من خلاله تستمر الحياة . وهى بعد أن تناديها بأداة النداء الدالة على قربها منها ، مرتين ، تعقب ذلك بندائها بأداة النداء [يا] لتستلفت انتباهها إلى أهمية ما توصيها به من خصال عشر ، تحرص على أن

---

(١) الروائع من الأدب العربى [الجزء الأول] العصر الجاهلى ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، إشراف ومراجعة د . يوسف خليف ، ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ .

تتصف بها ، لتجنى ثمار ذلك معاشرة طيبة ، وأسرة سعيدة ، يخيم عليها الرضا والسرور ، وراحة البال وهناء العيش . والأم حريصة على أن تقف ابنتها على طبيعة الرحلة التى هى مقدمة عليها ، ليكون ذلك أكثر دفعا لها إلى أن تحسن الاستماع إلى النصح لتفيد منه ، ولتضعه أمام عينها ، وهى تقدم على حياتها الزوجية ، والأم حريصة على ان تضع يدى ابنتها مقدما على نتيجة العمل بمقتضى هذه النصيحة المكتملة ، وهى حريصة أيضا على بيان أن حياتها مع زوجها حياة تحكمها المشاركة وتقاسم الحقوق و لواجبات . ويتضح ذلك فى تعبيرها الشرطى الموجز : « فكونى له أمة يكن لك عبدا وشيكا » . على أننا لسنا هنا فى مجال بيان حقوق كل من الزوجين وواجباته ، ولنا أن ننظر فى هذا المقام حديثا مفصلا عن ذلك ، ولكننا بصدد حديث أم إلى ابنتها فى ليلة البناء بها عن واجباتها تجاه زوجها ، التى لا شك أن مراعاتها تستتبع رضا هذا الزوج وتوفيته زوجته حقوقها المتعارف على أنها لها فى ذلك الوقت ، وليس المقام لتفصيل ذلك ، كما سبق القول ، وإن تكن الأم قد أشارت إلى المدى الذى تبلغه إشارة مركزة ، على ما سبق أيضا ولقد يبدو فيما أوصت به الأم ابنتها لمراعاته فى قيامها بشئون بيتها — أن هناك مبالغة أو شيئا يقرب من ذلك ، حيث تبدو الزوجة وكأنها تابع الزوج ، وظل له ، وانعكاس صادق لحالته ومزاجه ، وحقيقة الأمر أن فى ذلك بعض الحق ، وربما كان مناسبا للدور الكبير الذى نيط بالرجل فى مثل تلك الأزمان . لكن حقيقة الأمر أنه مهما كان للمرأة من دور فى الحياة العامة ، ونشاط خارج بيتها ، فإنه يبقى للرجل الدور الذى يجعله حريا بأن تهتم به زوجته ، وأن توفر له فى البيت سبل الراحة من أجل أن يقوم بدوره الذى لا غنى للأسرة والمجتمع عنه ، وهو دور الريادة والقيادة ومن هنا كان لوصية أمامة قيمتها وأهميتها .

وأنت عندما تجيل النظر فى كل هذه الخصال العشر ترى أنها جميعا تكفل سعادة هذه البنت ، ومن بعد سعادة المجتمع ، وهكذا يستبين لنا أن البيت العربى منذ القدم حريص على أبنائه ، يرمقهم بنظره ، ويحنو عليهم بقلبه ، ويبذل لهم كل ما أفرزته التجارب ، وما جادت به القرائح ، ويقدم هذا جميعه لهم فى شتى المراحل ، وبخاصة فى أوقات تمسى فيها الحاجة شديدة إلى الأخذ باليد ، وإنارة الطريق أمام الأبناء الذين هم الأعز دائما لدى الآباء ، يؤثرونهم على أنفسهم ، ويختصونهم بما لا يرونه حقا لأحد غيرهم ، وعلى هذا فطر الله الخلق ، وأقر فيهم هذا الميل من أجل أن يستمر تدفق نهر الحياة . ويسير الوجود على منهج تربوى سديد .

(ب) وصية أعرابية لابنها :

قال أبان بن تغلب : شهدت أعرابية توصى ولدًا لها أراد سفرًا ، وهى تقول : أى بنى ، اجلس أمنحك وصيتى ، وبالله توفيقك . أى بنى إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين الأقران ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا ! وتخلق بأخلاق قومك حتى تحظى بعفوهم ! وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ! وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك ، ولا تهزز اللئيم ، فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه ، ومن كانت مودته بشره ، وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل الريح فى تصرفها ، والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها .

تعليق وبيان :

وهذه امرأة تجود لابنها بما تراه خيرًا له فى حياته وتحوطه بحبها . وتقدم له النصح الصادق ، كى يفيد منه ، ويعرك الحياة على أساس مما يهدى إليه . وهو نصح والدة لولدها ، التى ترأف به ، وترحمه ، وتشفق عليه ، وتضن به أن يكون غرضا للأحداث ، أو هدفا للأيام ، وتقلبات الزمن ، أو غدر بعض اللؤماء .

إنها تحذره ، فى همس وترفق ، تلح بهما عليه أن يعتنى بما تقول – فتحذره من النميمة – وعيب الناس وانتقاصهم . فالنميمة تورث الضغينة ، وتؤلب الناس وتهيجهم . وعيب الناس جالب ازدراءهم وحرصهم على انتقاص منتقصهم ، والكيل له مما كان لهم منه . وهى امرأة حريصة على أن يكتمل خلق ابنها ، وتجمل شمائله ، وأن يكون مهذب النفس ، يقظ الضمير ، مراقبًا ربه ، متمسكا بدينه ، وهى من أجل ذلك تحثه على ألا يفرط فى دينه من أجل مال زائل ، أو دنيا ستفنى .

ثم إنها حريصة على أن يكون ابنها عف النفس غير مستشرف للمال ، أو متطلع إليه عند من لا يجود به ، أو من لا يقدر الناس كما ينبغى ، وذلك حتى يظل مبقيا على كرامته ، مترفعا عن أن يستذله اللؤماء ، أو أن يجدوا فى إراقته ماء وجهه على عتباتهم ما يرضون به نفوسهم المريضة من الكبر والتعالى .

وهى تطلب إلى ابنها أن يراعى فى معاملته الناس امتثال ما يجب أن يعاملوه به . وتبدو كأنها تؤكد للمرة الثانية نصيحتها بالابتعاد عن العيوب ، وتلفته إلى أن يتجنب

الوقوع فيما يعيب به غيره ، أو ما يستقبحه منه ، وتذكره بضرورة أن يعتنى بمراعاة ذلك ، لأن المرء غالبا ما ينسى أن يقوم سلوك نفسه فيهتم بغيره وتعداد نقائصه ، غافلا عما لديه مما يماثلها . ثم إنها تحض على ترجمة الصداقة وحسن الكلام الذى ينظر به لها ، وبشاشة الوجه التى تجعل لها عنوانا – إلى عمل حقيقى ، لئلا ينفر الأصدقاء ، ويحولوا وجهتهم ناحية أخرى .

وأخيرا تحذره من الغدر ، وتحثه على الحلم والجود اللذين بهما يكتمل حسن مظهره ، وروعة مخبره .

(جـ) التوجه التربوى :

وهل هناك ما هو أدل على صدق التوجه لصالح الأبناء من الآباء ، وأدل على البيئة الصحيحة التى تنبت عهده النصائح من بيئة الأسرة التى يمثل فيها الآباء دورا توجيهيا .

وليس أدل على المسئولية التربوية الملقاة على عاتق أفراد المجتمع ، من هذه الأحاسيس والمشاعر الصادقة التى يحس بها كل أب وأم تجاه فلذات أكبادهما .. وهكذا ، وبمثل هذا الصدق ، وتلك المسئولية تقف الأم موقف المربى ، وتجلس إلى ابنها مجلس الخبير العارف ببواطن الأمور فتمنحه خبرتها ، وترسخ فيه قيم الحياة ومسئوليت وجوده الاجتماعى ، حتى يستطيع مواجهة المواقف ، وعلى الرغم من أن الجانب التربوى فى علاقة الآباء بالأبناء ، واضح وفاعل فى تنشئة الأبناء ، فإن منهج الوصايا يؤكد على خصوبة شخصية الآباء ، ومدى ثقافتهم وعميق خبرتهم ، وغنى تجاربهم وقيام دورهم التربوى على أسس صالحة من القول الحكيم والمثل الهادف والفكرة السديدة ، والعلاقة الحميمة المسقية بماء الحب والصدق والإخلاص والرغبة الملحة فى الإصلاح والخلاص والأم العربية عبر وصيتها ، ترسم بدقة صورها الناطقة بخبرتها التربوية ، وتتميز تلك الصور برهافة اللفظ وقوته ، وبالحس الأبوى المثقف ثقافة العصر ، والمتمسك بقيم عربية متوارثة والمحافظ على الدين ومطالب الحياة ، وترتب النتائج على المقدمات حتى تضع المواقف أمام مسئولياته ، ووفق مصالحه ، ليختار قبل أن يخوض غمار الحياة ـ والأم – حينئذ – لا تفرض نفسها على ابنها ولكنها تفصح عن حقيقة وجودها الموصول بابنها ، فهى لذلك حريصة على أن تجنب نفسها فى شخص ولدها كل ما يعوق مسيرتها الحياتية والوصية إذن واجبة من قبل الآباء للأبناء ، وليست موقفا اختياريا .. بل قدر الأبوة ، ومسئوليات الحياة المحدودة فى أبنائنا ، ولذلك استطاعت الأم أن تعبر عن تجاربها وأفكارها

بشكل طبيعى من خلال المواقف الحياتية والتجارب المستوحاة من سحيق الأزمان ، وخبرات الإنسان ويمكن بلورة هذه التوجهات فيما يلى :

١ – مسئولية الحياة المشتركة والمتواصلة بين الآباء والأبناء . حيث الأجيال متناصحة متعاونة ، وليست متصادمة .

٢ – الجمع بين الخبرة والتجربة والموقف والنتيجة بلورة للهدف المشترك .

٣ – الترتيب النفسى والعقلى والسلوكى ، بدءًا بالبسيط ثم المركب .

٤ – التعليل المنطقى والعاطفى لكل ما تقدمه الأم من نصائح .

٥ – إثارة الخيال وشحن العاطفة ، لإمكانية توظيف العناصر والأفكار البناءة والإيجابية .

٦ – التأكيد على الجانب الاجتماعى نفيا للفردية والأثرة وتأكيدا على إقامة علاقات متوازنة بين مصلحة الفرد والصالح العام ، والتنسيق بين كل من المصلحتين .

٧ – تقوية الانتماء ، وخلق الاستعداد لدى الفرد فى علاقته بغيره ، توطينا للمشاركة الاجتماعية الوجدانية .

٨ – الطرح المستمر لنقائص الذات ، تحقيقا للشخصية الكاملة ، وتأسيا بالمنهج النقدى الذاتى ، الذى يبرز كومن الشخصية ، ويساعد على التوجه الإيجابى ؛ ولهذا فإن هذا الأدب يسمى بأدب الذات ..

٤ – التراث الأدبى وتربية الطفل إبداعيا :

ومع الأطفال ، نستطيع أن نقدم لهم ، الخبرة والتجربة والمعرفة فى صورة أدبية أو فنية ؛ لأن النصيحة المباشرة ، أو الموعظة والإرشاد الموجهين ، من أساليب الاتصال التى يرفضها الطفل .. فهو سريع النفور من الأوامر ، والنواهى التى تأخذ شكلها الفوقى ؛ أى المفروض من أعلى .. لكنه أكثر حفاوة واحتفالا بكل ما هو انفعالى مثير ؛ ولذلك فإنه يقبل على النصائح ، والمواعظ ، والمعارف ، فى أسلوب أدبى فنى وجدانى انفعالى : قصصى ؛ أو شعرى ، أو حدوتة .. الخ من هنا نستطيع أن نقدم له ألوانا من النصوص التاريخية الأدبية التى تحمل بين سطورها المعرفة ، وتنبث فيها الحقائق هنا وهناك ، وبأسلوب غير مباشر وبرغم ما لعصرنا من سطوة علمية .. حيث الحداثة هى التى تعنى التفجر العلمى والمعرفى ، والثورة فى كل أشكال الموروث الحضارى ، وحيث نشهد

الثورة التكنولوجية الثالثة ، ونعيش عصر الذكاء والعبقرية الإنسانيين ثم التكامل بين جميع الأبعاد ، والجوانب ، والمقومات الحياتية فإن الطفل ، هو الكائن الوحيد ء الذى يمثل الفطرة ، والبراءة والبكارة الإنسانيتين ، ويظل على وفائه ، وولائه لكل الأشكال الفنية . والأدبية ، وهو أميل لكل ذلك ؛ لأن يتعامل مع كل المتغيرات من خلال الفن ، والأدب ؛ أى أنه يظل محتفظا بحقه فى أن يتلقى المعرفة ، والخبرة .. لكن عن طريق الأدب ، والفن ، ودفء الأمومة ، وحنان الأبوة ، ومحبة المعلم ، وفضائله ، وقيمه .. ومع أى تطوير للمناهج فى مستوى أطفال ما قبل المدرسة ، وما بعدها ، علينا ألا نغفل دور النص الأدبى بكل أشكاله الفنية ، واللغوية ، مما يتيح للطفل القدرة على الإفادة ، تحقيقا لما أودعه الله فيه من سليقة ، وطبع ، وفطرة تقوده إلى الفن ، والأدب والتركيز على اختيار موضوعات لها أهميتها الوجدانية وتأثيرها العاطفى ؛ لتكون وعاء المعرفة ، والخبرة ، الذى يقدم للطفل ، ويظل الأدب ، هو قاعدة المنظومة المتكاملة التى تقدم للطفل ، والهدف الجوهرى الذى تقوم عليه هذه المنظومة فيما نزود به التلميذ ، والطفل من أساسيات الثقافة والخبرة ، والمعرفة ، والهوية القومية بأهم عناصرها والهوية الوطنية بكل مقوماتها ، والتى تمكنه من أن ينمى قدراته ، وأن يسهم فى ترقية بلاده ومجتمعه ، وأن تمكنه – وهذا مهم – من أن يستثمر مواردها المتاحة استثمارا أمثل ، متأثرا فى هذا بعقله الذى تكون على مهل وتبعا لميوله فى طريقة تحصيل المعرفة .. وها هى ذى نصوص أحب أن أعرضها من صفحات التاريخ الأدبى العربى وأن أستعرضها معكم ؟ لنستطيع أن نوظفها توظيفا تربويا وأن تكون مثلا على المعرفة المكتسبة ، والقيمة المتحصلة ، والخبرة والتجربة المبتغاه عن طريق الأدب والفن . وفى سياق أدبى ، نستطيع تقديم المعرفة ، وبنفس السياق الأدبى ، نربى أبناءنا وذلك بمثل :

وصف مصر لعمرو بن العاص ، والخبرة عن مصر : « هبة النيل »

لقد كان عمرو بن العاص ، فاتح مصر ، مبهورا بمصر هبة النيل . هذا ما يؤكده وصفه لمصر ، الذى قدمه إلى الخليفة « عمر بن الخطاب » .. فالنيل هو شريان الحياة المصرية ، مبارك فى غدواته ، ميمون فى روحاته .. حيث جعل من مصر بسانا مختلف الثمار ، والأكل والأزهار ، وحول صحاريها القاحلة ، إلى جنات وارفة الظلال ، تنبت الذهب ، وتفيض بالخير ، وينطق كل شىء بأرضها بعظمة الفلاح صديق ، ورفيق هذا النيل العظيم .. لكن ما يلبث هذا الخير أن يتدفق فى خزائن الرومان المستعمرين ، والمستغلين ، والمتعالين على أهل البلاد .. والمصريون لهم من هذا النيل ، وهذا الخير ،

وهذه الأرض القيحاء ، الحرث ، والزرع ، والغرس ، والعرق ، والشقاء ، والعناء ، والطاعة العمياء ، والظلم والظلماء . وقد برع ابن العاص فى وصف مصر هبة النيل ، ووصف النيل فى نقصانه ، وزيادته ، وفيضه ، وجريانه .. فإذا أفاض كان بقوة ، وبهدير ، كأنه قدعب عبابه ، واصطخبت أمواجه ، وملأ السهول ، والوديان ، وفصل ما بين القرى والبلدان .. عندئذ يفزع أهل مصر إلى صغار القوارب وخفاف المراكب ؛ لينتقلوا من جانب إلى جانب وأجمل ما فى هذا كله ، هو التصوير الفنى ، والواقعى لحال مصر مع النيل ، فهى لؤلؤة بيضاء مع الفيضان ، وعنبرة سوداء مع انحساره ، ثم تتراءى بعد ذلك ، وكأنها زمردة خضراء مليئة بالزروع ، والنبات ، وبالأزهار ، والثمار ، وفى وقت لاحق تتحول إلى ديباجة ، ولوحة منقوشة بمختلف الألوان ، والأصباغ ، والأشكال ، فسبحان الذى إليه المآل .. والنص فى صورته الأدبية الرائعة يتضمن المعارف والخبرات ، والتجارب التى ينبغى أن نقدمها لأطفالنا :

(أ) « مصر هبة النيل » هذه حقيقة كونية ، ومعرفة بشرية ينبغى أن يدركها أطفال مصر .. من هنا ينبغى أن نحافظ على النيل ، وعلى مصدره ، ونقضى على كل المعوقات أمام جريانه ودون تدفقه بقوة ، وشدة اندفاع .

(ب) على ضفاف النيل ، تمتد الأرض الخصبة ، التى تلبس أثوابها حسب علاقتها بالنيل .. فهى بيضاء وقت الفيضان – والفيضان حينئذ مهم ؛ لأنه يجدد الأرض ، ويغذيها ويغمرها بالطمى ، فإذا انحسر عنها تحولت إلى أرض سـوداء تنتظر البذور ، والأغراس، ويد الفلاح، ثم تتحول إلى بساط أخضر، مزين بمختلف الألوان ، والثمار .

(جـ) هذا الخير كله . كان – عند حصاده – يذهب إلى الرومان المستغلين والمستعمرين ، والمتعالين على الشعب المصرى .

(د) لما جاء الإسلام عاد هذا الخير إلى أصحابه ، من الفلاحين والعمال والملاك ، ونظمت الحياة المصرية فى ظل العدالة الإسلامية ، ورُفعَ عن المصريين جميعا مفهوم « أهل ملة محقورة » ؛ ليحل محله : « أصحاب وطن حر مؤمن بالله واحدا لا شريك له ، ولهم ما لهم وعليهم ما عليهم .

(أ) النص :

وهو من الأدب الوصفى ، الذى ينبغى أن ينموعليه الحس الأدبى عند الأطفال فى إطار تربية الطفل المبدع .

« لمَّا استقر عمرو بن العاص على ولاية مصر ، كتب إليه عمر بن الخطاب أن صف لى مصر فكتب إليه يقول :

(اعلم يا أمير المؤمنين أن مصرَ : قريةٌ غبراء ، وشجرةٌ خضراء ، طولها شهرُ وعرضها عشْر . يكتنفها جبلٌ أغبر ، ورملٌ أعفرُ . يخطّ وسطها نيلٌ مباركُ الغُدُوات ميمونُ الرَوَحات ، تجرى فيه الزيادةُ والنقصانُ كجرى الشمسِ والقمر له أوان يدرُّ حلابهُ ، ويكثر فيه ذُبَابُه . تمدّه عيونُ الأرض وينابيعُها ، حتى إذا ما اصلخم عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض على جنبيه . فلم يمكن التنقل من القرى بعضها إلى بعض إلاّ فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل وُرقُ الأصائل ، فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبيه كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى دورته . فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون الأرض ويبذرون الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لغيرهم ما سعوا من كدهم ، فناله منهم بغير جِدّهم فإذا أحدق الزرع وأشرق سقاه الندى ، وغذّاه من تحته الثرى ...

فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤةٌ بيضاء ، إذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هى زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء . والذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقرّ قاطنيها فيها ، ألاّ يُقبل قول خسيسها فى رئيسها وألاّ يستأدى خراجُ ثمره إلاّ فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها . فإذا تقرر الحال مع العمال على هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال ، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل) ...

فلما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لله درك يا ابن العاص لقد وصفت لى خبرًا كأنى أشاهده » ..[1] .

(ب) **شرح بعض المفردات :**

قرية : فى رواية (تربة) غبراء : ذات غبار أو فى لون الغبار . شبه صحارى مصر بقرية غبراء . وواديها الخصيب بشجرة خضراء ...

---

(١) « النجوم الزاهرة جـ ١ جـ ٣٢ .

عشر : عشر ليال ، والمراد عشرة أيام . والعرب تعبر عن اليوم بالليلة التى هى بداية اليوم طبقًا للشهور القمرية ...

يكتنفها : يحيط بها ...

أعفر : بياض مشوب بحمرة ...

يدر حلابه : يغزر ماؤه ، يقال درّ الضرع : إذا جاء باللبن ، والحلاب بمعنى الحلب استعمل هنا للمحلوب ...

اصلخمّ : اشتد ، يقال نهر عجاج أى تسمع لهديره عجيجا أى صوتًا .

العجاج : هدير الماء ...

المخايل : جمع مخيلة وهى الظن ...

الورق : الحمام جمع ورقاء ...

نكص : رجع ...

طما فى دورته : علا فى فيضه ...

أهل ملة محقورة وذمة مخفورة : هم أهل البلاد ، وكان الرومان يحقرونهم ويخفرون ذمتهم أن ينقضوا العهد معهم ، والمعنى : لا يرعون لهم عهدًا ولا ذمة ...

لغيرهم ما سعوا من كدهم : أى أنهم كانوا يكدون فى حرث الأرض واستنبات النبات وعند الحصاد يستولى الرومان على المحصول ، والمؤرخون يشيرون إلى أن مصر فى أواخر عهد الرومان بها كانت مزرعة لرومة ...

بغير جدهم : الضمير يعود على (لغيرهم) ، ولعل الأصل (بغير جده) ... ثم حرف . أو أن الضمير عاد مجموعًا مراعاة لمعنى (غير) ولفظها يطلق على متعدد ...

أحدق : استدار وصار كالحدقة ...

أشرق : تفتح نوره ... ..

الديباجة : الثوب المزركش فارسى معرب ...

رقشاء : مؤنث أرقش أى منقطة بنقاط بيضاء وسوداء . والوصف هنا للصورة التى تظهر من ربى الحياض ، تلك التى لا تزال مستعملة فى أعالى الصعيد حتى اليوم ، فالأرض تغمر بالمياه فتبدو لؤلوة بيضاء ، ثم ينحسر الماء عن حبيبات الغرين الأسود ، وهو الطمى فتبدو عنبرة سوداء . ثم ينبت فيها الزرع الأخضر فتبدو كأنها الزمردة الخضراء ، ثم يتلون فيما بعد بألوان مختلفة . وفى خطط المقريزى (٢٦/) أن مصر ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء والأخيرة هى زمن الحصاد حيث يكون القمح كالسبيكة منظرًا ومنفعة ...

قاطنيها : ساكنيها ...

يستأدى : يطلب إليه الأداء ...

ونحن أمام طفل ناشئ ، فى مجتمع يعتز بالمتفوقين ، والأذكياء من أبنائه ، وهو دليل على أن المجتمع العربى ، كان حريصا ، على تربية وتنشئة هؤلاء العباقرة ، وتقوم تربيتهم على عناصر ، ومقومات من أهمها : الثقة فى النفس ، والاعتزاز بالانتماء القبلى والقومى ، والجرأة المهذبة ، والشجاعة الأدبية القوية ، وقوة الحجة ، والبلاغة السديدة ؛ وهذا وجدنا غلاما صغيرا لم تبلغ سنه إحدى عشرة سنة ، يمثل قبيلته عند الوفادة ، على أمير المؤمنين عمر بن العزيز ؛ للتهنئة ، وليتحدث باسم وفد الحجاز ، قافزًا بذلك على التقاليد ، والعادات ، التى تحتم ، أن يكون المتحدث باسم القبيلة فى الوقادة على الأمراء ، الخلفاء ، ورؤساء القبائل ، هم الشيوخ وكبار القوم .. لكن وفد الحجاز ، أراد أن يضرب المثل المبهر على حسن تربية الأطفال ، وبث روح الثقة ، والصحة النفسية بينهم ، وتؤكد على عبقرية أطفاله ، فقدم هذا الغلام الصغير ليتحدث بفصاحة ، وبلاغة ، اهتزت لها أعواد المنابر ، وأوتار القلوب .. فلما أنكر الأمير على الغلام رائيًا أن يتقدم من هو أسن ، وأكبر ، أسمع الخليفة كلامًا ينهض على الفصاحة ، والبلاغة ، والخبرة الواعية الرشيدة فأعجب به الخليفة عمر بن عبد العزيز ووجد فى تعميم الأطفال ، وفى حسن تربيتهم ، وتقويم لسانهم ما يجعلهم أهلا للسيادة ، والرئاسة ، والقيادة ، وفرصة ؛ لأن ينوه عن هذا .

كما أننا أمام أبناء يتلقون مبادىء ، وقيم التعايش مع مجتمع سيواجهونه . بدون خبرة ، ولا تجربة وذلك بعد رحيل الأب .. وهنا كان الأب (عبد الملك بن مروان) حريصا على أن يزود أبناءه بصور من المبادىء ، والمواقف ، التى تضىء لهم طريق حياتهم الحافلة بعد مماته . وها هو ذا الابن الشجاع الذى يخشى مواجهة الموت فى سبيل قيمه ، ومبادئه ، فيتلقى عن أمه درسا فى الجهاد ، والاستبسال وعظمة الاستشهاد فى سبيل الدين والمبادىء ، فيقدم نفسه طائعا لعدوه ، وعدو مبادئه ، ويموت موتا نبيلا عظيم ، ذلك هو موت الشجعان وهو موت غالى الثمن ، وليس موت الجبان أو الموت بالمجان ؛ لهذا فنحن أمام أمومة عظيمة هى « أسماء بنت أبى بكر » وأمام بنوة باسلة هو : « عبد الله بن الزبير » . ويمكن الاستفادة من هذه الآداب التى يبدعها الكبار متوجهين بها للأبناء فى شكل نصيحة ، أو توجيه وإرشاد وذلك فيما يلى :

١ – توفير قدر كاف من الصدق النفسى ، أثناء تلقى الأبناء لمثل هذه الألوان الإبداعية .. وهذه الثقة توفرها طبيعة العلاقة بين الأدب والابن .

٢ – توفير كثافة روحية ، وشحنة عاطفية ، تجاه الحياة وزخم هائل من الأحلام الجميلة ؛ لتغذية حلم الرجولة ، والمسئولية ، والسيادة ، فى عالم يقذف بالعناصر غير المجربة إلى الظل .

٣ – راعت هذه الأشكال الإبداعية العفوية درجة النمو النفسى لدى الأبناء ؛ لذلك فإنها تضمنت أفكارا تتفق ومراحل نموهم .. حيث ينبغى أن يتفق الإبداع الأدبى فى عالم الطفل والأبناء ، مع درجة نموهم النفسى ، واللغوى .

٤ – كما أن هذا الأدب الإبداعى ، بألوانه المتعددة يهتم بتكوين عقلية الأطفال ، وتنميتها مع تدريبه على التحليل ، وتكوين الآراء والنقد ، وإصدار الأحكام ، ودقة الملاحظة ، وسلامة الاستنتاج .. وهذه الألوان قد تم عرضها بالأسلوب ، الذى يضمن الصدق الفنى ، ويدعم المشاعر ، والانطباعات والاتجاهات المنشودة ، بطريق غير وعظى وتنتفى عنه المباشرة ، وبالطريقة التى تستهو لأطفال .. وفى الصفحات التالية سنحاول أن نقرن بين النص الأدبى ، والتعقيب عليه تربويا ، وجماليا ، ولغويا ، وإليكم هذه النصوص :

١ – وفد الحجاز ، وعمر بن عبد العزيز ، وفصاحة وبلاغة طفل عربي :

لَمَّا استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدم عليه وفودُ المهنئين من كل جهة ، فتقدم من وفد الحجازيين غلام « صغير » للكلام لم تبلغ سنه إحدى عشرة سنة ، فقال له عمر : ارجع أنت وليتقدم من هو أسن منك ، فقال الغلام : أَيَّد اللّهُ أميرَ المؤمنين المرءُ بأصغريه : قلبِهِ ولسانِهِ ، فإذا منح اللّهُ العبدَ لسانًا لافظًا ، وقلبًا حافظًا فقد استحق الكلامَ ، ولو أنَّ الأمر يا أميرَ المؤمنينِ بالسن لكان فى الأمة مَنْ هو أَحقُّ منك بمجلسِك هذا ... فقال عمر : صدقتَ . تكلم فهذا السحرُ الحلالُ : فقال : يا أميرَ المؤمنين نحن وفدُ التهنئةِ لا وفدُ المَرْزِئة[1] ، قدمنا إليك من بلدِنا نحمَدُ اللّهَ الذى منَّ بك علينا . لم يخرجنا[2] إليك رغبةً ولا رهبةً[3] ، لأنا قد أمنا فى أيامك ما خفنا ، وأدركنا ما أمَّلْنا . فقال : عظْنا يا غلامُ وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين إن أناسًا غرّهم حلمُ الله عنهم ، وطولُ أملهم ، وحسنُ ثناء الناسِ عليهم فلا يغرّنك حلم الله عنك ، وطولُ أملِك ، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمُك . فتعجب عمر من كلامه ، وأنشأ

تعلمْ فليس المرء يولد عالِما ... وليس أَخو علم كمن هو جاهلُ
وإن كبيرًا لقومٍ لا علمَ عندَه ... صغيرٌ إذا التفتْ عليه المحافلُ

٢ – خبرات وتجارب الأجيال :

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عند رأسه ، فقال :

(يا هذا . أحنينَ الحمامةِ ؟ إذا أنا مِتُّ فشمرْ واتزر[4] ، والبسْ جلد نَمِر وضع سيفَك على عاتِقك ، فمن أبدى ذاتَ نفسه ، فاضرب عنقَه ، ومن سكت مات بدائه . ثم أقبل عبد الملك يذُمّ الدنيا ، فقال : (إن طويلكِ لقصير ، وإن كثيرَك لقليل ، وإن كنا منك لفى غرور) ، ثم أقبل على جميع ولده فقال : (عليكم بتقوى الله ، فإنها عصمةٌ باقية ، وجُنّةٌ واقِيةٌ ، فالتقوى خيرُ زاد ، وأفضلُ فى المعادِ ، وهى أحصنُ كهف ، وليعطفِ الكبيرُ منكم على الصغيرِ ، وليعرِف الصغيرُ حقَّ الكبيرِ مع سلامة الصدور ،

---

(١) رزأه مرزأة : أصاب من ماله شيئًا ، ومرزئة بالكسر أصاب منه خيرًا أى لسنا وافدين لعطاء ، وغايتنا التهنئة ..

(٢) الفاعل ضمير يعود على لفظ الجلالة .

(٣) مفعول لأجله أو حال مؤولة بالمشتق (راغبة) .

(٤) اتزر : البس الوزر وهو السلاح الثقيل ، أو البس الوزرة وهى الثوب القصير ، فيكون من جنس التشمير .

والأخذِ بجميلِ الأمورِ ، وإياكم والبغىَ والتحاسدَ فبهما هلك الملوك الماضون ، وذوو العزّ المكين ...

يا بَنىَّ : أخوكم مسلمة نابُكم الذى تفرّون[1] عنه ، ومِجَنكم[2] الذى تستجنون به أصدروا عن رأيه ، وأكرموا الحَجاج ، فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمرَ ،وكونوا أولادًا أبرارًا ، وفى الحروب أحْرَارًا ، وللمعروف مَنارًا ، وعليكم السلام) ...

٣ – أسماء بنت أبى بكر وابنها عبد الله بن الزبير ، وصبر الأمومة ، وفداء البنوة :

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبى بكر فى اليوم الذى قتل فيه ، وقد رأى من الناس ما رأى من خذلانهم ، فقال :

(يا أمّه . خذَلنى الناس حتى ولدِى وأهلى ، فلم يبقَ معى إلاّ اليسيرُ ممن ليس عنده من الدفعِ أكثرَ من صبرِ ساعة ، والقومُ يعطوننى ما أردتُ من الدنيا فما رأيُك ؟ فقالت : أنت والله يا بنى أعلمُ بنفسك . إن كنت تعلمُ أنّك على حق ، وإليه تدعو فامضِ له ، فقد قُتل عليه أصحابُك ، ولا تمكنْ من رقبتِك يتلاعبُ بها غِلْمانُ بنى أميةَ وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبدُ أنتَ ، أهلكتَ نفسَك وأهلكتَ من قُتِل مَعك . وإن قلت : كنت على حق فلما وهَن أصحابى ضعفتُ ، فهذا ليس فعلَ الأحرارِ ولا أهلِ الدين ، وكم خلودُك فى الدنيا ؟ القتل أحسنُ ، والله لضربة بالسيفِ فى عزّ أحب إلىّ من ضربة بسوط فى ذلّ . قال : إنى أخاف إن قتلونى أن يُمَثّلوا بى . قالت : يا بنى إن الشاةَ لا يَضيرها سلخُها بعد ذَبْحها ...

فدنا منها ، وقبل رأسَها ، وقال : هذا والله رأيى ، والذى قمت به داعيًا إلى يومى هذا ، ما ركنت إلى الدنيا ، ولا أحببت الحياة فيها ، وما دعانى إلى الخروج إلاّ الغضب لله أن تستحل حُرمَه ، ولكنى أحببت أن أعلمَ رأيك فزدتنى بصيرةً مع بصيرتى فانظرى يا أمّه ، فإنى مقتولٌ من يومى هذا . فلا يشتد حزنُك ، وسلمى الأمر لله ...) .

رؤية تربوية :

الحق إن الإنسان ، ليعجب أشد العجب ، من علاقة الأب العربى – قديما – بابنه ، وبأولاده عامة ؛ لأنها علاقة روحية ، وإنسانية ، وتربوية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة

---

(١) تفرون : تفتشون وتبعثون ، وفر الدابة : كشف عن أسنانها ليعلم ما سنها ؟

(٢) امجن : الترس الذى يقى الفارس فى الحروب وأصل المادة الستر .
يقال جن الليل إذا أقبل بظلامه .

الأخيرة .. وربما يأتي العجب – أو شدته – حين نقارن بينها وبين علاقة العربي بابنه ، وبأولاده الآن .. فالأب العربي عاشت علاقته بابنه . وهي مشمولة بالرعاية القائمة على بناء شخصية الابن ، والتأكيد على روح الصمود والمقاومة لديه وفسح المجال أمام نمو قدراته ، وتقديم النصيحة له في كل وقت من أوقات التجربة الحياتية ، واليومية !! . وبذلك أسعد والديه ، وآبائه وأجداده ، وقبيلته ، وأمته ؛ ولذلك كان قادرا على تحمل مسئوليات الحياة ، وتبعات ثقة القبيلة في شاعريته ، أو فروسيته ، أو جهاده المديد من أجل عقيدته ، وأمته ، وكان دائما – بسبب هذه النصائح التربوية وإعداده لتحمل المسئوليات الكبار – قادرا على قيادة أمته من الموقع الذى يناط به .

ولقد قامت هذه التربية على مجموعة من الأفكار ، كانت تنعكس على الأبناء في دراستهم ، وتأملهم ، وطلبهم العلم وتحصيل المعرفة ، بالقراءة ، أو بالاحتكاك العلمي ، والثقافي أو بالرحلات ، والاتصال المباشر بمصادر المعرفة والتعلم وبأثر من هذه التربية ، والنصائح الموجهة ، كانت حياة الأطفال العرب ، حياة جادة ، وطلبا للعلم وللقيادة ، ورفعة شأن الأمة ، والارتباط القوى بها ، وقوة الانتماء إليها .. وقد انعكست هذه النصائح على الأطفال – أيضا – في مسلكهم تجاه الخوف ، أو الموت ، أو الشيخوخة .. فلا الخوف ولا الموت ، ولا الشيخوخة ، استطاعت أن تؤثر فيهم أو في إقبالهم على حياة المغامرة ، والمخاطرة ، والاكتشاف ولا أن تضعف من أخلاقهم ، وفضائلهم ، التي استمرت على نحو مذهل .. إلى أن انساق العرب خلف القيم الوافدة وأخضعوا أبناءهم ، وأطفالهم لنظم تربوية ، أضعفت من دور الأب والمجتمع ، وانشغال المجتمع نفسه والآباء بالحياة اللاهية العابثة التي جرفت الجميع ، وأسلمتهم إلى شاطئ التبعية ، والاستكانة ، وإفراغ التربية العربية من روح المغامرة ، والمخاطرة ، والاكتشاف ، والاعتزاز بلغته ، وتقاليد أمته وثقافة ، ومفاهيم الحياة الحقة التي ورثها عن أجداده الأقدمين .. نطلاقا من هذا كله كانت خبرات وتجارب عبد الملك بن مروان لابنه ، وحوار « أسماء بنت أبي بكر » مع ابنها « عبد الله بن الزبير » فالأول ؛ يمتد في ابنه ، وهذا أساس من أسس التربية العربية والثانية ؛ تصنع لابنها مجدا في الدنيا ، وذكرا موصولا ، وحياة أخروية خالدة .. ويرغب الأب في أن ينشأ ابنه على فهم عظيم للحياة والأم تحرص على مصداقية الابن ، في علاقته بقيمه ومبادئه ومعتقده ؛ لأنها تعيش مجتمعا عقائديا ، يؤمن بالله واحدا لا شريك له ، وأنه وحده الذى يكافئ ، ويعاون ، وإليه المآب فالتربية – هنا – جزء من النظام السياسي والاجتماعي والعقدى وتهيئ الطفل ، والابن ، والأبناء جميعا

ليتحملوا المسئولية فى استمرار تقدم ، وتطور هذا النظام على كل المستويات ويمكن تحليل هذه النصوص تحليلا تربويا ، واجتماعيا ، وذلك فيما يلى :

أولا : الخليفة « عمر بن عبد العزيز » ، يرد على الموقف الذى ضمه مع وفْدِ الحجاز ، وفيهم الغلام الصغير ، الذى تحدث ببلاغة ، وفصاحة أمامه بالحث على التعلم ، والحض على العلم إذ لا فرق بين إنسان ، وآخر إلا بالعلم ، والمعرفة ، وتحصيل الخبرات .. وكم هو جميل من الخليفة ، واتجاه تربوى منه ، أن يتراجع عن رأيه ، ويسلم برأى الغلام .. ففيه مسلك ، ينمى لدى الغلام ولدى آبائه الحاضرين منهجا مؤسسا على حرية الرأى والعودة إلى الوجه الصحيح .. وأن الصغير صغير فقط بخبراته وتجاربه ، وأن الكبير . كبير فقط بمعارفه ، وقوة حجته ، ونصاعة فكره .. كما أن الرجوع إلى الحق ، دليل على الشجاعة ، وقوة الشخصية ، التى ينبغى أن ننشئ أولادنا عليهما والخليفة ، لا يكتفى بقوله : « صدقت » . بل يشفعه بقوله : « هذا السحر الحلال » ثم يطلب منه المزيد من الموعظة الحسنة ومده بالنصيحة ، وإرشاده إلى ما فيه صلاح الرعية .. ثم يثنى على العلماء ، والمتعلمين . فى شخص الغلام الصغير ، ويدعو إلى التعلم ، والتربية ، والسلوك الحسن ، والخلق الفاضل .

ثانيا : أما « أسماء بنت أبى بكر » ، فإنها تدفع بفلذة كبدها ، إلى ساحة الاستشهاد .. وهى لا تحث على هذا الموت الجليل لابنها إلا يقينا منها بأن هذا يحقق له رضاء الله ، والذكر الحسن ، وإعلاء شأنه فى الدنيا والآخرة ، وتحرك وترا دينيا ، وعقائديا حساسا !! أى أن التربية ينبغى أن تقوم على الدين ، والمعتقدات الصحيحة .. والأم فى هذا الموقف العظيم ، لا تخاطب فى ابنها الجانب العاطفى .. بل تحاور فيه جانبه العقلانى ؛ واعتمدت على الواقع الملموس فى هذا الحوار وتخيره بين شيئين ، وتلقى فى روعه أنه إن فر من ضريبة الدم التى يوجبها الدين على المجاهدين فى سبيل معتقدهم ، فلن ينجو من غدر بنى أمية أعدائه ، ويمكن رقبته من غلمانهم ، يتلاعبون بها .. ثم نراها تبسط له جميع الاحتمالات ؛ لتقطع عليه التفكير فى التراجع .. إن ألم به خور ، أو جبن .. حيث قالت له :

١ – إن كنت تعلم أنك على حق ، وإليه تدعو ، فامض له .. وفى هذا تربية له ، ولغيره ، وتنمية للإحساس الدفين ، بقيمة المبادئ العظيمة ، التى نؤمن بها ، ونعتز بالدفاع ، والبذل عنها ، ولها .. وفى هذا ، أيضا ، قيمة للموت حتى لا يكون موتا بالمجان . بل موت إنسان فى سبيل حياة الآخرين ، وإعزاز مبادئهم .

٢ – وإن كنت ، إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت .. أهلكت نفسك ، ومن تبعك . وفى هذا تربية للشخصية . على تحمل المسئولية ، وتحمل التبعات ، وربط الحرب بالقيم الرفيعة . والمثل العليا . ورفض الحرب التى تكون طلبا للدنيا والاستبداد والاحتلال .

٣ – وإن قلت : « كنت على حق ، فلما وهن أصحابى ضعفت ، فهـا ليس فعل الأحرار ، ولا أهل الدين .. فكم كان جميلا من الأم أن تحقر لابنها حياة الذل ، بهذا الاستفهام التهكمى : كم خلودك فى الدنيا ؟ والله لضربة سيف فى عز أحب إلى من ضربة سوط فى ذل .. فلما كشف لها عن مخاوفه من التمثيل بجسده بعد مماته ، قالت قولتها ، التى صارت على مدى الزمن قولة مشهورة ، حكيمة ، نبيلة ، عظيـمة : « وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ » هذا احوار الصاعد إلى قمة الشموخ الإنسانى ، بين أم وابنها ، دليل على عظمة الأمومة ، والبـوة ، وعظمة ونبل الإنسانية التى ينتمى إليهما هذان العظيمان . حيث الخبرة الحياتية ، وعظمة الإقبال على الموت بشجاعة وبسالة ، واستصغار ما يقدم فى سبيل الدين ، والمبادئ ودليل على عظمة « الابن » وسمو تربيته ، ونبل مقاصد هذه التربية له ، ولغيره من الأطفال ، والأبناء ثم إننا نلمح فى الحوار بين الأم ، وابنها صورة أخرى من صور الحب للأمهات من الأبناء .. فالمشورة التى طلبها عبد الله بن الزبير » من أمه ، لم تكن خوفا وهلعا من الموت فقط وإنما أراد – أيضا – أن يعد أمه ، ويمهد لها السبيل إلى يوم تخشاه الأمومة ، وليوم له ما بعده ، حتى إذا نزل القضاء ، وحم القدر ، لم تجزع ولم تهلع ، وسوف تجد فى المشورة الصادقة آسيا من لطف الله ، وروحه ، ومواسيا لها من حسن رعايته وعظيم لطفه ، وفضله ، وسوف تجد فى الصبر والعزاء ، والجنة المرتقبة برد العزاء .. و « بشر الصابرين » . هذه أمومة تعانى .. لكنها تصبر ، وهذه بنوة تضحى لكنها تأمل فى رضاء الله ، ورضاء الأم ، ورضاء الصحب .

ثالثا : أما عبد الملك بن مروان ، فإن عاطفة قوية مشبوبة قد ظهرت بجلاء ، عندما اقترب من النهاية ، فأخذ يوصى أبناءه بما يجعلهم أقوياء ، يخافهم ، ويخشاهم من يضمر عداوة ، أو يخطط لهزيمة .. فهو يحشى على أولاده من بعده فى مجتمع عالمى ، يشهد صراعا رهيبا بين المسلمين أصحاب الإيمان والتوحيد ، وغيرهم أصحاب المصالح والنزعات العدوانية ، التى تتأكد مع الاستغلال ، والاستعباد فدعاهم – وهم قادة المسلمين – إلى أن يتنمروا فى مجتمع النمور ، وأن يتذأبوا فى مجتمع الذئاب ؛ لأن فى

هذا سلامهم .. فهو يربى فيهم الحرص ، والتربص ، والترقب . وبعد أن صور لهم الدنيا فى صور ، لا يقدر عليها سوى الخبير ، العالم ببواطن الأمور ، حثّهم على التمسك بالفضائل ، ونمى فيهم قرى الخير قائلا :

١ – أوصيكم بتقوى الله ؛ لأن فى تقواه السعادة فى الدنيا والآخرة .

٢ – العطف على الصغير ، وتوقير الكبير ؛ لأن فيهما صلاح العباد ، والحياة ، وتكوين المجتمع الصحيح . حيث استقرار دولة الإسلام تقوم على مثل هذا .

٣ – ترك البغى والحسد فيما بينهم ، وفيما بينهم ، وبين غيرهم فالحسد يقطع المودات ، والبغى يهدم الجسور بين الأفراد والمجتمعات . وفى هذا تربية لهم ، ومدهم بأعظم خبراته . حيث حاجتهم الماسة إلى مثل هذا الفهم للعلاقات .

٤ – كما طلب إليهم الالتفاف حول أخيهم الأكبر ؛ لأن فى هذا الالتفاف قوة ، وتماسكا ، وعصمة لهم .. ويمكن لنا أن نثرى أطفالنا ، وأبناءنا بهذه التجارب ، والوصايا كما يمكن تثقيفهم ، ثقافة أدبية تثرى لغتهم ، ونربى فيهم الحساسية الفنية تجاه لغتهم ، وذلك بتعريفهم نواحى الجمال فى هذه التراكيب التى أمامهم ، وذلك مثل الكنايات : (إذا متُّ فشمِّر ، واتزر) كناية عن لبس السلاح ؛ أى استعد دائما للقاء عدوك ، وكن أيضا مستعدا لبناء أمتك .. (البس جلد نمر) ؛ أى تنمر لمن يخيفك و « ضع سيفك على عاتقك » ، (وأبدى ذات نفسه) ، و (التقوى جنه) ، و « التقوى خير زاد » .. ثم ينكر على ابنه أن يبكى ؛ لأنه فى موقف تلقى المسئولية ، وذلك حينما وجه إليه هذا الاستفهام الإنكارى : « أحنين الحمامة ؟ » إننا فى الحقيقة ننظر إلى التربية نظرة شاملة ؛ لأن الأمر فى مقام نصائح الآباء للأبناء سياسة وإحكاما للأمور ، وتولية لمصالح الأمة ، فجاءت النصائح ، والتربية موصولة بهذه التوجهات .

ثانيا – مع الشاعر العربى القديم وأدب الطفل :

١ – من صور الأبوة ، والبنوة فى الشعر العربى :

لقد احتفظ لنا الشعر الجاهلى ، بصور حانية ، وعلاقات رحيمة بين الأبناء والآباء .. وقد وفق الشاعر الجاهى ، حينما أقام استجابة وعلاقات متبادلة بين أفراد الأسرة وحاول جاهدًا أن يعيد ذلك التوازن النفسى والإنسانى والاجتماعى من خلال العلاقات الحميمة مع عالم الأسرة العربية ، التى تعتبر علاقات الأبناء والآباء من أشرفها ؛ ولذلك فإن الشعر العربى قد صار مصدرا خصبا للثقافة الإنسانية بعامة وثقافة التواصل بين أجيال الآباء

والأمهات والأبناء بخاصة ، وأيضا ذلك اللون الثقافى البهيج الذى يدور حول النصائح والخبرات والتجارب التى يقدمها الأب أو الأم للولد أو البنت . حيث تجمل الحياة ، وتخف ضراوتها .. وفى الحقيقة فإن شخصية الأب ، أو الأم ، أو الابن تتميز فى شعرنا العربى القديم بالعاطفة الشديدة وتستمد من دوافع الحب ، والوفاء والانتماء والمفاخرة ، والتباهى ما يجعل هذه الشخصية تنطلق من منطلق عائلى وأسرى ، وقبلى ، بمثل الحماية ، والحرم ، والعزازة ، وبث الحماس ، والمساندة عندما تنزل الخطوب .. من ثم فإننا نلتقى بالشعر الجاهلى وهو يتغنى بكل ما يدعم كل هذه الدوافع والعلاقات ، ويشيد ، ويفيض فى إسباغ صفات الكمال ، والجلال والرحمة والعطف على هذه الشخصية المحورية وهى شخصية الأب والأم والابن ، وما ينشأ عنها أو عنهم من علاقات ، وانماء وأرحام ولا أريد أن أستفيض ، فى هذه الشخصيات وصورها فى الشعر ، غير أننى أستطيع أن أقول إن الشعريرز دور الأسرة من خلال شخصياتها المحورية ويتوجه بأثر من الحس المرهف وطبيعة العلاقات الأسرية فى إطار القبيلة – بالجميع ، نحو المجمع المتساند فيحقق بهذا الصحة النفسية والاجتماعية ؛ ولهذا كله كان للشعر وظيفته الضرورية التى نستطيع معها أن نؤرخ لهذه العلاقات وأن نقف على جوهر تكون الشخصية الأسرية ، وفضلا عن هذا كله فإن الشعر دائم الإيقاظ لفضائلنا الأسرية والإنسانية ، والاجتماعية ودائم التذكر لكل ما يتميز به مجتمعنا من قيم ومبادئ وأسس إنسانية ويمكن لنا أن نلتقى بصور الأبوة ، والبنوة فى نماذج من الشعر تفيض جمالا ، وبهاء ، وتتداعى صورها فى أطر لغوية ، تنبض بالولاء للقيم الفاضلة التى يتبناها المجتمع العربى ، وذلك مثل :

أولا : من صور الآباء مع أبنائهم :

إن النصوص ، التى تدعم هذه المشاعر الإنسانية . ذات البعد الحضارى الروحى العميق كثيرة .. وليس المقام هنا هو مقام الحديث عن هذه النصوص ، وتتبعها .. لكن نكتفى بضرب الأمثلة ؛ ولأن المقام يتعلق أساسا بإبراز عاطفة البنوة والأبوة وعظمتها وتألقها حينما تتحاور العواطف برهافة حس ، وروح نقية ومشاعر إنسانية مرهفة ، ومن خلال شعر يفيض بتلك المشاعر ويتميز بالعطاء الخالص غير المشوب بالتصنع أو تكلف تلك المشاعر .. وهدف هذا الشعر ، والمبدع الذى أبدعه ، هو إعلاء القيم وتكريس المثل العليا فى الفن وفى الحياة أيضا ، وكما يبدأ الفن بشعر رصين جميل رومانسى النزعة

وإنسانى الغاية ، تبدأ الحياة بأسرة متحابة متآلفة متحاورة ومتصالحة بين أجيالها . من هنا استطاع الشاعر أن يضفى على عمله الفنى الإنسانى لمسة الفن والإبداع ، والجمال والحضور الإنسانى ممثلا فى صور الأسرة ، من خلال الأب ، والأم والابن ، والزوجة .. إلخ .

وأقوى عاطفة وأصدقها ، حينما نسمع البنت قد استبد بها البكاء والعويل عند فقدان « الأب » وها هى ذى « آمنة بنت عتيبة » ترثى أباها . فأسمعتنا كيف شقت عليه الصدر ، ولطمت الخد ، وفاضت عيناها بالدمع السخين والذى دعاها إلى هذا هو أبوته الغالية ، التى جمعت كل المحاسن ، والمحامد ، كما أنه فارس شجاع مقدام والبنت تزهو بأبيها إذ جمع كل هذه الصفات وأضاف إليها الصدر الدافىء الحنون ، واليد الحانية والسند القوى ، والملجأ الأمين الذى لا ينضب حبًا وسماحة ، وبرا وعطفا ؛ وها هى ذى تبدع شعرها الباكى الحزين فتقول :

على مثل ابن ميـــة فانعيــاه بشق نواعــم البشر الجيوبا
وكان أبى عتيبـــــة سمهريـــا فلا تلقـــاه يدخــــر النصيبا
ضروبا للكمى إذا اشمعلت عـوان الحرب لاورعا هيوبا

فهو عندها ، مهيب ، كريم ، فارس ، شجاع . وإذا كانت هذه صفات الإنسان العربى الكامل فما القيمة العظيمة التى تراها البنت فى أب مثل هذا .. إنه من غير شك إعجاب بالبطولة والأبوة العظيمة ، الجديرة بكل تقدير وإكبار ؛ ولهذا كان على الآباء مسئولية تجاه أبنائهم وهى أن يكونوا نماذج رفيعة المستوى وقيما وقدوة حتى يسعدوا أبناءهم .

ومن أنواع العواطف التى يكنها الأبناء لآبائهم الفخر ، والإحساس العظيم بقيمة الأب حيا وميتا .. فهو قيمة مستمرة فى حياة الأبناء والأحفاد والشعر العربى الجاهلى ، خير شاهد على أن عزة الأبناء والأطفال تتأكد فى الانتماء إلى الآباء والأجداد وقد اغتنى الشعر بتجارب تؤكد أن الطفل العربى الجاهلى ، كان فخورًا بمن حوله وبقبيلته ، وكانت قبيلته ، تعتز ، وتفخر بأطفالها النجباء حتى إن قبيلة خلال وفادة أحد وفودها على عمر بن عبد العزيز ، قد جعلت الحديث إلى الخليفة لأحد أطفالها دون الثانية عشرة سنة .. وعندما اعترض عبد الملك بن مروان على ذلك رد عليه الغلام ، بكلمة فيها كل الحكمة والخبرة العربية الأصيلة ، وذلك عندما قال قولته : « يا أمير المؤمنين المرء بأصغريه : قلبه ولسانه » ..

وها هى ذى ابنة الأعشى الشاعر ، تحاول إثناء أبيها عن السفر والترحال خوفا عليه ؛ ولأن فى السفر والرحلة فقدانا للأبوة التى تريد استمرار سعادتها بوجودها فى كنف أبيها ، مصورة له حالها وحال الأسرة فى غيابه . كأن غيابه واليتم شىء واحد ؛ لأنه ينتج إحساسا واحدا ، وعلى لسان تلك لابنة يقول الشاعر :

تقول ابنتى حين جد الرحيل ... أرانا سواءً ، ومن قد يتم
أبانا فلا رِمْت من عندنا ... فإنا بخير إذا لم تَرِمَ
ويا أبتا لا تزل عندنا ... فإنا نخاف بأن تُخْتَرَم
أرانا إذا أضمرتك البلا ... د نُجفى وتُقْطع منا الرحم

فالأطفال أكثر خوفا على أبيهم ويشفقون عليه من كثرة السفر ، لأنهم يعتبرن سعادتهم فى وجوده ، وبجواره .. ففى موته أو بعده ، أو مرضه ضياع للأطفال وتحزيق للأسرة وهدم للأساس الذى نهض وقام عليه بيتهم .. والابن حينما يفتخر بنفسه فإنما يؤسس لهذا الافتخار الفخر بالآباء والأجداد .. وفى معرض الاعتداد بالنفس يأتى الاعتداد بالانتماء إلى الآباء ، والأجداد فى المحل الأول . وهذا يؤكد صحة ما يقال : إن الطفل بحاجة إلى الانتماء للآباء ، والأجداد مثل حاجته إلى الطعام والشراب والهواء ففى الأولى حياته الروحية ، وفى الثانية حياته البدنية وفى هذا – أيضًا – تأكيد على قلة تقوق الأبناء لآبائهم فى المجتمع العربى وإن العلاقة بالوالدين ، هى من نفس حفاظ الأبناء على نسبهم وولائهم لقبيلتهم .. يقول الشاعر مفاخرًا بالأب :

فلا ، وإلهى ، ما غدرتُ بذمةٍ ... وإن أبى قبلى لغير مُذَمَّم
يجرد فى السربال أبيض صارما ... مبينا لعين الناظر المتوسم
يجود ، ويعطى المال من غير ضنة ... ويضرب أنف الأبلخ المتغشم
يحل بأوغارو سهل بُيوتُه ... لمن نابه من مستجير ومنعم

إن الشعر هنا يكتسب نبضه ، من موضوع علاقة الأبناء بالآباء إذ من خلال تلك العلاقة الحميمة ، والصميمة تتخلق الصورة العامة والمغزى العام من الشعر الذى يحتفظ بطعم تلك العلاقة وقد اختار الشعر الجاهلى فى بيان تلك العلاقة الطريقة المباشرة للتعبير والتصوير .. لكن المباشرة الفنية ليست فى الحقيقة سوى عنصر فنى ضرورى من عناصر الصدق الفنى وللشعر فى كل تجاربه ونبضاته ، نفثات صادقة ، مفعمة بالأمل والرجاء ؛ لأنه يتعلق بالسلوكيات ، فى كثير من التجارب التى تدور حول الأبناء والأطفال بصفة عامة ، كما أنه يهذب هؤلاء الأطفال ويؤدبهم بأتى مراتب

القيم والتقاليد والعادات السلوكية السليمة ؛ ومن هنا كان قول شاعرهم عن النشأة وتربية الأبناء :

ويُنَشَّأُ ناشئُ الفتيـان منا على مـا كان عوده أبـوه

بل قد يكون الغرض من قول الشعر ، فى الجاهلية ، هو حث الأبناء ، ومن تفرع عنهم ، على التحلى بمكارم الأخلاق ، والإغاثة ، والنجدة ، وبناء شخصية الطفل ، والابن على القيم العربية الكريمة والتربية والتنشئة على الشجاعة والإقدام وحسن الأحدوثة .. وهذا ما يؤكده كتاب العمدة حينما يقول صاحبه : « وكان الكلام كله . منثورًا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء ، بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أحداثها المشهودة ورحلاتها وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ؛ لتهز أنفسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرًا ؛ لأنهم شعروا به ؛ أى فطنوه »[1] وأحسوا بجماله وها هو ذا معاوية بن أبى سفيان ، يجعل من الشعر قيمة تربوية وتعليمية ، حينما يقول : « يجب على الرجل تأديب ولده ، والشعر أعلى مراتب الأدب » فالشعر بخاصة ، وأدب الطفل بعامة مدرسة يتلقى فى رحابها الطفل ، تهذيبًا ، وتعليما ، وتربية ، وتقويمًا فمما لا شك فيه . أنه كان فى الشعر الجاهلى بخاصة ، والشعر العربى بعامة ، اهتمام بالأبناء ، وبالطفولة عامة ، وكان هذا الاهتمام . متوجها بكل أفراد المجتمع القبلى ، خلال أجياله الصاعدة نحو بناء شخصية الطفل والابن على أسس عظيمة من مكارم الأخلاق ، والفصاحة ، والبلاغة ، وكل القيم والفضائل التى اقتضتها وتقتضيها طبيعة الحياة العربية والتكوين النفسى لأفراد هذا المجتمع .. من ثم كان الاهتمام بالشعر وبالأدب وسيلة من أهم الوسائل فى تربية الطفل ، وتنشئته ، وإعداده بالشعر الجاهلى ، والشعر عموما ، هو قصائد حب للأطفال ، الذين هم الحياة نفسها والدليل الأقوى على أن العرب الجاهليين كانوا أصحاب حضارة بمقياس ما ، هو أنهم أبدعوا شعرًا ، وجعلوا من هذا الشعر نافذة يطلون منها على عالم الطفل ، وحملوه أشواقهم إلى جيل المستقبل الذى تسوده العدالة ، والسلام ، ويستشرف الرؤى المستقبلية ، وراء سحب دخان الحروب القبلية التى كانت تعد الأطفال للفروسية وللشعر .. ومن ثم لتلك الحروب ومن هذا المنطلق كان الشعر مؤمنا بقضية الطفولة السعيدة المتحررة المنتصرة المؤمنة وكان الشعر متنبئا

(١) كتاب العمدة لأبن رشيق القيروانى ص ٢٠ .

وراهصا أكثر منه آنيا ، وواصفًا .. إن الإيمان بقضية الأطفال فى الحرية والسعادة والسلام هو الإيمان نفسه بقضية الحياة العامرة بالإنتاج والعمل والسعادة والأمن والحب والتسامح والسلام لقد استطاع الشعر الجاهلى وهو يعالج قضية « البنوة والأبوة » ومكانة كل منهما ، فى التجربة الشعرية ، أن يمزج بين العقل ، والوجدان حتى إن الفن الشعرى لم يكن ضحية العقل الشعرى بل حرص الشاعر وهو يعالج هذا الموضوع وأمثاله أن يجمع بين الفن وروح التربية ، وتوجيه الأب ، وانتماء الابن ..

ثانيا : من صور البنوة ، مع عاطفة الأبوة :

للحياة العربية ، خصائص ومقومات ، وللمجتمع العربى الجاهلى ، خصوصيات ، وطموحات ؛ ولأن الإنسان العربى ، أمام بيئته ، وأحداث الزمان وطبيعة المكان ، عاجز ، ضعيف ، مقهور ؛ لذلك فهو لا يملك إلا أن يتساند ، ويعتمد على الشجاعة والبسالة ، والجسارة ، وعلى العدد ، والعدة . من هنا نشأ الحب للأبناء ، وللأطفال ، ذكورا ، والقلق ، وعدم الرغبة ، فى الأبناء إناثا .. حيث التجربة العربية القبلية ، تؤكد أنه كلما ازداد عدد الذكور ، وأفراد القبيلة ، وفرسانها ، قويت وذاع صيتها ، وارتفع شأنها ، وعظمت فى أعين الغير ، واحتلت موقعا ساميا بين القبائل ومن هنا كان حب ، وحرص الآباء ، والأجداد على أطفالهم ، وأبنائهم ، وحبهم لهم وحدبهم عليهم وعطفهم الشديد ، يبذلونه للأبناء .. فاللحمة بين الفرد وأسرته قوية وبينها وبين القبيلة أشد ، وأقوى ؛ لأن القبيلة تنصر أفرادها ظالمين : أو مظلومين ومع ذلك فالقبيلة كلها ، تعود إلى أب واحد ، وأم أو أمهات مختلفات .

ولا عجب ، حينما كان الأب يعد ابنه إعدادا أسريا ، وقبليا ، ويربيه منذ الصغر على أن يكون فارسا ، شجاعا ، وشاعرا مفلقا ، وخطيبا مفوها ، وحكيما مرموقا ؛ ليكون شرفا لأسرته ومدافعا عنها ، وفخرا لقبيلته ، وذائدا عنها وفى كل الأحوال ، فإن الأب ، يحمل كل الحب لابنه والفخر به ، والخوف عليه .. فالابن هو محور حياة الأب ، والابن هو كل شىء فى حياة الأسرة ومن ثم القبيلة ، وفى الأفق الأوسع للمجتمع العربى كله . ولما كانت البيئة لها ظروفها القاسية ، والموت يتخطف الأبناء ، والآباء ، والفقدان هو السائد على كل من يعيشون فى ظل تلك الحياة فإن عاطفة الأب تجاه أبنائه كانت تسودها كثيرا مستويات من مشاعر التعقل ، والاستقرار ، وتظل لذلك كامنة ، أو فى حالة كمون ، ظاهرى ، إلى أن يحركها ، ويثيرها ،

ويقلقها ، ما يلم بالأبناء من حوادث القتل ، أو الأسر ، أو الموت فى الصحراء ، حينئذ ، تتفجر هذه العاطفة ويستمر أوارها ، ويستبد بها الأحزان إلى أن تتمثل فى حزن عاجز نبيل ، ويصور الأب الشاعر تلك الأحزان فى قصيدة وها هو ذا الأب الشاعر : « حارثة بن شرحبيل » يعيش بنا ومعنا فقدان الابن ، فأخذ يصور لنا عاطفته تجاه هذا الفقدان ، فى صور تبل اللسان ، بمرارة لا يتذوقها سوى الآباء فالأب يروح ، ويجىء بحثا عن ابنه ، ويستنطق فى رحلته البائسة ، واليائسة كل الأشياء ويظل فى مناجاة نفسية ، يعانى منها ؛ لأن حديث النفس . حينئذ ، هو نواح ، وبواح فالأب يغدو جزعا ، ويروح حزينا ، وتستبد به لظنون من كل جانب ، فينفجر أسى ، ولوعة وإبداعا شعريا باكيا حزينا ؛ ليقول مصورا فقدانه لابنه زيد[1] :

بكيت على زيد ، ولم أدر ما فعل ... أحيٌّ يرجَّى أم أتى دونه الأجل
فوالله ، لا أدرى ، وإنى لسائل ... أغالك بعدى السهلُ ، أم غالك الجبل
ويا ليت شعرى ، هل لك الدهرَ أوبةٌ ... فحسبى من الدنيا رجوعُك لى بجل
تُذَكِّرُنِيهِ الشَّمسُ عند طلوعها ... وتعرض ذكراه إذا غربها أفل
وإن هبت الأرواحُ هيَّجْن ذكره ... فيا طول ما حزنى عليه وما وجل
سأعمل نص العيس فى الأرض جاهدا ... ولا أسأم التطواف ، أو تسأمُ الإبل
حياتى ، أو تأتى على منيتى ... فكل امرئٍ فَانٍ ، وإن غَرَّه الأجل

فالشاعر الأب المكلوم المفجوع ، يبكى ابنه زيدا ، وهو لا يدرى عن أخباره شيئا ؛ فهل هو حى ، فينتظر عودته ، أم اقتطفه الموت غريبا ، فيبكى وفاءه بأجله مبكرا ، كما أنه لا يدرى متسائلا ؛ هل مات فى الأرض البراح ، أم وافاه الأجل فى الجبل ، وهل ولغ وحش فى دمه ، أم ناله إنسان فى مقتل أم ابتلعته الصحراء فى جوفها ، أم ضيعه البحر فى أمواجه أم غيبه الجبل فى أحشائه .. ؟ ؟ ، ويتمنى أن تكون له أوبة ، ولو لمرة واحدة عبر دهره الذى يعيش : إذ حسب الأب ، أن يرى ابنه ولو لمرة واحدة ، يأتيها والأب يشعر بأن الشمس تهيج له الذكرى .. فعند طلوعها تذكره ، وعند غروبها ، وأفولها تذكر له غيابه : وتؤجج نيران فقده .. حتى الرياح تهيج ذكراه ، وسيظل تحمله الجمال القوية المدربة ، الصابرة ، تتحمل معه مشقات البحث عنه ، دون سأم ، أو ملل .

---

(١) السيرة النبوية ١/٢٤٨ القاهرة سنة ١٩٥٥ ...

وسيظل هكذا يبحث عن ولده طيلة حياته ، إلى أن يموت ؛ لأن الموت هو نهاية المطاف ، حتى وإن اغتر الإنسان بطول العمر – وهذا تعبير فيه الكثير من الحكمة ، والسلو .. والحقيقة أن حالة الاقتتال ، و لحرب المعلنة باستمرار بين القبائل ، كانت سببا هاما فى حالة الفقدان التى عاشها المجتمع ، والذى كان الأطفال ، والنساء أكثر ضحاياه .

وصورة أخرى ، نراها نابضة بالعواطف ، والحنان ، وإدامة التذكر ؛ يفجرها أب آخر مكلوم ، ومفجوع فى ابنه البطل الفارس المقدام ، والذى عرفته ميادير القتال باسم « عداس » .. وقد ضيعته الأحداث فلا يعرف أبوه له خبرا ، أو مكانا .. وهكذا يفيض الوجدان بشاعرية ، وعاطفية ، تؤكد على أصالة العلاقة بين الأب وابنه . لأنها علاقة قائمة على الفطرة .. وإذا كانت بعض الروايات تؤكد على أن « عداس » هذا الفارس المغوار رغم صغر سنه ، قد قاتل فى الجيش العربى ضد جيش كسرى الفارسى ، فأسره كسرى[1] فإن هذا الابن الفارس قد استحق أن ينطلق الأب الشاعر ، يجسد مشاعره ، وعواطفه فى هذه الأبيات ، التى تثور فيها العواطف ، وتفيض بهم الشاعر ، وعذاباته ، وإحساسه بالقهر ، والغم ، وشدة الحزن :

أعداس هل يأتيك عنى أنه ... تغير خلان ، وطال شحيب
أعداس مايدريك أنّ رُبَّ هالكٍ ... تَقَطَّع من وجد عليه قلوب
تغابيته من أن أرى بكآبة ... فيشمت لاح ، أو يُساء رقيب
إذا وردوا ماء تذكرت فارطى ... وفارسنا إذا تُشَبُّ حروبُ
وودعت خلان التجار وخمرهم ... ومرت علينا إذا أصيب دبيب
أؤمل عداسا ، كما يؤمل الحيا ... إذا خفت أو مالت علىَّ خُطُيبُ

فالشعر هنا ، يزخر بالعواطف الأبوية ، الصادقة ، وبسديم من المشاعر المتدفقة حبا وحنانا ، ونلمس بصدق العواطف ، وهى تتدفق فى عفوية .

والشاعر الأب ، يؤكد لابنه ، فى نبرة حزينة مفجوعة بسبب أسره أنه دائم البكاء والشحوب ، وما زال على حاله لم ولن يتغير .. رغم تسانده الظاهرى ؛ لكن رب مفارق ، تبكى عليه القلوب فأتماسك ؛ حتى لا يشمت شامت ، أو أن يستفيد أحد بذلك .. وإنى أتذكرك عند المياه والاحتراب حولها ، وفى الميدان عندما يعز الفارس . فأنت فارسها ، وبسببك ودعت الحياة ، وانقطعت عن الجميع وأؤمل عودتك ، وأنتظرك ،

---

(١) الوحشيات ؛ لأبى تمام ص ١٤١ القاهرة سنة ١٩٦٣ .

كما نتشوق إلى الماء الذى يحيى فينا الأمل ، ويجدد حياتنا .. فأنت – يا بنى – فأمننا عند الخوف ، أو عندما تنزل بنا المصائب . وأنت الذى يعتمد عليك ، فى تخفيف البلوى ، والدفاع عن الحريم ومع الأبوة الحانية ، قد تكون البنوة العاقة ، وهى قليل فى المجتمع الجاهلى القديم ، لأن الكل متساند فى مواجهة ظروف قاسية وقد قدم لنا الشاعر الأب « أمية بن أبى الصلت » تجربته الشعرية ، مع ابن شغل عن أبوته .. فبماذا يعاتبه ، إنه يعاتبه مشفقا ، وحانيا ، ومؤملا ، وباذلا له كل الظروف التى تعينه على إصلاح أمره مع أبيه قائلا :

غذوتك مولـــودا ، وعلتك يافعـا ... تُعَلُّ بمـا أدنـى عليك وتنهـل
إذا ليلـة نابتك بالشكـو لـم أبت ... لشكـواك إلا سـاهـــرًا أتململ
تخاف الـردى نفسى عليك وإنها ... لتعلـم أن المـــوت حتم مـؤجل
فلمـا بلغتـا لسـن والغـــاية لتى ... إليهـا مدى مـا كنت فيك أؤمـل
جعلت رجائى منك جبها وغلظـة ... كـأنك أنت المنعـــم المتفضـــل
فليتك إذ لـــم ترع حق أبـــوتى ... فعلـت كما الجارُ المجاورُ يفعل[1]

فالأب هنا يعتب على ابنه ، ويصور له تجربته فى تنشئته ومعاناته خلال مراحل نموه ، إلى أن أصبح إنسانا يعتمد عليه .. ثم بعد هذا كله ، يقابل الأبوة وحنوها ، وعطفها ، وتضحياتها ، بعقوق البنوة ، وجهامتها ، وغلظتها ، وإنكارها .. وفى هذا الشعر جانب كبير ، ومسطح مترام من التوجيه الأبوى ، وتعديل سلوك الابن ومثل هذا النص الشعرى ، ينبغى أن يكون ، موضوعا للدراسة ، لأطفال ما فوق العاشرة ، ولطالبات شعب ، وكليات رياض الأطفال وإذا كان نص كهذا ، يمتلئ بالعتاب ، وبالقدح ، فإنه يتضمن فى الوقت نفسه ، عطفا وحنانا ، وخوفا على الابن من أن يعد خارجا عن مألوف البنوة ، وعلاقتها بالأبوة يؤكد هذا ما نقرؤه فى شعر « المتنخل الهذلى » الذى فجع فى ابنه « أثيلة » فأخذ يبكيه كأحر ما يكون البكاء .. والشاعر الأب قد جزع لفراق ابنه واستبد به الألم ، وأخذ الحزن يتسلل إلى كيانه فيعتصر القلب ، ويدمى النفس ، ويجرى الدمع ثم يأخذ الأب ، فى ذكر الأوصاف ، التى يفخر بها الابن ، من شجاعة وإقدام ، وجسارة ، وما يتصف به ذلك الابن ، المفارق لأبيه بالموت ، من مروءة ، ونجدة ، وبسالة . فكأن هذا الابن الراحل بالموت ، كان – بفضل هذه الصفات – يحمل سر

(١) ديوان أمية بن أبى الصلت تحقيق البيجاوى ص ٤٣٢ .

مجتمعه القبلى ، وسر أبيه ، وهو الاستمرار المأمول من إنجاب الأبناء ؛ لذلك فإن لفقده ، أثرا كئيبا على القبيلة ، والأب معا . والفقدان فيه ، هو فقدان لاستمرار القبيلة ، ولدورها فى المستقبل .. من هنا كان ألم الفراق ، الذى يستشعره فى قلبه ، كل أب يرى فى ابنه ، فوق البنوة ، عونا على الحياة ، وعلى قسوتها وبهذا الإحساس ينبغى أن نقرأ أبيات « المنخل الهذلى » ، وهو يعتصر قلبه ، والنار المتقدة تلسع كل مشاعره ، وأحاسيسه :

ما بـــال عينيك تبكى دمعها خَضَلُ ... كما وهى سرب الأخـــرات متزل
تبكى على رجـل ، لـم تبل جدتـه ... خلى عليك فجاجـا بينها سبـل
فقد عجبت ، وما بالدهر من عجب ... أنى قتلت ، وأنت الحازم البطل ؟
ويلمـه رجــــلا تأبـى بـه غبنا ... إذا تجـرد لا خـــال ، ولا بخـل
التـــارك القـــرن مصفرا أناملـه ... كأنـه من عقــــار قهـوة ثمل
ليس بعـل كبير لا شبـــاب لـــه ... لكن أثيلة صـــافى الوجه مقتبل(١)

الأبيات تشعرك بأنك أمام عاطفة أبوية ، تستحق منك وقفة أمام منهج الآباء فى العصر الجاهلى ، وهم يبكون فقد أبنائهم ؛ لأنهم لا يفرقون بين قيم المجتمع القبلى ، وفلسفته وعناصر الرثاء للأقران ، والأبناء ، والفرسان ، والرؤساء فالابن فى المجتمع العربى الجاهلى ، هو ابن القبيلة ، وحامى طموحاتها والمدافع عنها ؛ فهو جزء منها ، وفقدانه ، هو فقدان لأمنها خاصة إذا كان المفقود فارسا شجاعا مقداما . وهذا هو الإحساس ، الذى انتاب شاعرنا الأب ، وهو يبلور لنا إحساسه بالفقدان ، على أنه الإحساس الخاص عن طريق علاقته الأبوية ، وخلال الإحساس العام :

فالشعر الجاهلى ، فى معظمه هو مفتاح لمعرفة ، وعولمة الحياة العربية نفسها ، واعتبارها جزءا من العالم عصرئذ ، كما أن هذا الشعر الذى يصور ، علاقات الآباء ، والأبناء ، وأفراد الأسرة والقبيلة ، إنما يعطى مفتاحا لحياة الذين يشكلون البنية الأساسية الإنسانية ، والاجتماعية لهذا المجتمع وهذه النصوص الشعرية ، تعتمد على قالب فنى ، يحافظ على تقاليد الفن الشعرى والموروث العربى ؛ ولذلك اهتم بالجانب الوصفى ، وإبراز الطاقات الفردية خلال الاستعراض المادى لصفات الشجاعة والإقدام ، والمروءة ، والنجدة ؛ ليسير بها نحو التوجه القبلى العام ، ولينتهى بالمتلقى لهذا الشعر إلى أن

(١) أشعار الهذليين عبد الستار فراج ص ١٢٨٠ جـ٣ ط القاهرة سنة ١٩٦٢ .

يكون على قناعة كاملة ، بتمكن الشاعر ومهارته ، فى استخدام الفن الشعرى العربى استخداما صحيحا .

فلسفة التربية العربية الجاهلية ، كما أوضحها الأدب : شعره ونثره :

من الحكمة لنا ، ونحن نستعرض ، صور الآباء ، والأبناء ، والأسرة فى لمحات خاطفة من الأدب الجاهلى ، أن نتقصى دوافع هذا السلوك التربوى . وتفهم وجهة نظر الآباء ، والنظام القبلى الطبقى ، والعرف العربى العام ، والخاص .. والتقاليد العربية ، وأهم الصفات التى يحرص عليها العرب ، ويورثونها أبناءهم ، وذلك من قبيل المروءات ، والنجدة ، ورفع الظلم عن المظلومين ، والعزة ، والفخر ثم الأعراف الاجتماعية القبلية ، التى يربى ، وينشأ عليها الأبناء من مثل : احترام الكبير ، وتوقيره ، والرحمة بالصغير والعطف عليه وإجارة المستجير ، وسلوكيات الفرسان ، والالتزام القبلى ، والبذل فى وقت الشدة أكثر ، وفى وقت الفرج ، والرخاء ، وإلزام الأبناء . كل هذه الأعراف التى ترسخت مع الزمن ... وقد اعتبر المجتمع القبلى كل هذه السلوكيات والقيم ، والأعراف ، من صميم منهج الحياة العربية الجاهلية وهى فى مفاهيمها العامة ، تشكل فلسفة اجتماعية قبلية وتضيف ضوابط باستمرار ، يحتاج إليها الأفراد ، والأطفال ولهذا فغرس هذه المبادىء ، والقيم ، فى نفوس الأبناء ، والأفراد هو بمثابة إحساس بديل للفقدان الدينى الصحيح ؛ ولأنها بمثابة الفلسفة ، التى تدعو الناس إلى التساند ، والتعاطف ، والتكامل ، والتعاون فى رد العدوان على القبيلة ، أو على نظامها الفكرى ، والروحى ، والعرفى العام .

والأدب بهذا ، يعد الأطفال ، والأبناء للالتزام نحو المجتمع القبلى الممثل – أيضا – للشخصية العربية الأصيلة ، ويكرس مضامينه للوفاء بمطالب ، وتوجهات هذا المجتمع ، وتلك الشخصية حتى أصبح هو المدرسة ، التى يتلقى فيها الأبناء التربية والتعليم . وكان غرض الآباء من كل هذا الأدب بعامة ، والشعر بخاصة ، الذى يحمل مضامين تربوية ، وخبرات إنسانية ، وبيئية ، أن يتاح للأبناء الإلمام بالقاسم المشترك الأعظم للثقافة العربية ، والقبلية ، التى تمثل إحدى الضرورات لاستمرار الوجود ، والكيان ، وإحدى الحتميات لتحقيق التقدم والتحضر والتعرف على رموز الثقافة البيئية ، ونماذج الفن الشعرى ، الذى هو بمثابة ، الكتاب ، والتاريخ اللذين يحملان فكر الأمة العربية ، وتاريخ الوطن القبلى والإقليمى . وهذا المجتمع قد وجد فى الشعر ضالته ، وخبرته عن الحياة ، فأوصى بالشعر

رواية ، وحفظا ، وإبداعا ؛ لأنه قد وجد أن واقع الأمة القبلى ، والوطنى ، لا يمكن أن يتطور ، ويحقق الأساس من التقدم المطرد ، للأبناء ، ويثريهم بالمعارف ، والمهارات ، إلا بإكسابهم قيم المجتمع وتقاليده ، وثقافته بعامة ، وكان الشعر بمثابة المدرسة ، والآلية ، والمنهج ، والكتاب الذى يرجعون إليه ؛ ولهذا فإن الاهتمام بالأبناء ، والأطفال ، كان مؤسسا على قوة العلاقة بين الشعر والأطفال ، تحقيقا للتوجهات العامة للمجتمع القبلى .

وهذا الشعر يمثل جميع أفراد المجتمع ؛ لأنه يعبر عنهم جميعا . والحقيقة أن الشاعر ، الذى يقول شعرا ، إنما يصدر فى هذا الذى يقوله ، أو يبدعه عن قيم ، وقواعد راسخة فى القبيلة . فإذا تبنى شاعر هذه القيم ، وعبر بها لأبنائه ، فكأنه يعبر عن أبناء الجميع ، وسواء كان هذا الشاعر عدوا هو وقبيلته لقبيلة أخرى أم لم يكن ، فإن الإبداع الشعرى وكل القيم التربوية ، التى يتضمنها ، إنما هى ملك للجميع ، ويأخذه أفراد المجتمع ويرون هذا الشعر القيمى المعرفى ، ويحفظونه ، وذلك لمجرد أنهم يشعرون بأنه عبر عنهم ، ويظلون يعيدون ترديده ، وإبداع غيره ، إلى أن يصبح جزءا من موروثهم لفنى وجزءا أصيلا فى مضامينه ، وقيمه ، ومعارفه من ثقافتهم ، ورؤيتهم فى اتجاه الحياة والوجود . وهكذا تكون لهذا الشعر ، قيمته التربوية العظيمة فى توجيه ، وتنشئة الأبناء ، والأطفال ، ويمكن أن نطلق عليه « أدب الكبار » بحكم ارتباطه بقيم مجتمع القبيلة ، وفى الوقت نفسه ، هو « أدب الأطفال » ؛ لأنه يعبر عن قيم المجتمع ، من خلال تربية الأطفال وحسن تنشئة الأبناء .

وبعد فإن عدم تكامل خبرة معلمى « أدب الطفل » بالتراث ونصوصه : يفقد عملية التربية والتعليم ، والتثقيف الأدبى للطفل ، مدخلا تربويا أصيلا ، لتربية عقل . ووجدان ، ومشاعر الأطفال ، وارتباطهم بقيمهم ، وتراثهم ، وإبداعات هذا التراث . وفى الحقيقة ، إن تنمية مشاعر ، وعواطف ، ووجدان الأطفال عن طريق استدعاء هذه النصوص التراثية ، المليئة بالحكمة ، والخبرة ، والتجربة ، والإثارة الواعية ، والقيمة اللغوية الجمية ، والقيمة الفنية ، والفكرية المؤثرة ، تنمى وعى الطفل ، وبمجتمعه ، وبتاريخه : وتاريخ أمته .

ولما كان التراث صعب المنال ، على معظم العاملين فى ميدان التدريس ، وعلى معلمى « أدب الطفل » بخاصة ؛ لأنه – أى اللغة ، والنصوص الإبداعية – تحتاج إلى مهارة خاصة لذلك أقترح أن تقوم المؤسسات التربوية . والتعليمية بجمع التراث الدينى بنصوصه ، والفنى بشعره ، ونثره والوصايا ، والأمثال ، وكل ما يتصل « بأدب الطفل » وجمعه وتحقيقه ، وضبطه ، وشرح مفرداته ، ومعانيه ، وأفكاره واستخلاص ما يدعو إليه من

« أفكار إنسانية » وتوجيهات اجتماعية ، وإرشاد تربوى ، وأهداف ، فى خدمة التنمية على كل مستوياتها ، ويتم هذا عن طريق المؤلفين فى مجال « أدب الطفل » بعامة ، وطلاب الدراسات العليا : (ماجستير ودكتوراه) بخاصة ، وبشرط أن يكون الجميع ، من أصحاب المهارات ، وهوايات التعامل مع اللغة العربية ، وتراثها الأدبى .

حتى يمكن لهذه المادة الأدبية التراثية ، المتصلة « بعالم الطفل » أن تكون صالحة للتوظيف ، وإثراء عملية تعليم « أدب الطفل » وهذا كله يحقق مزيدا من الإيجابيات التالية :

١ – رفع كفاءة معلمى رياض الأطفال ، و« معلمى أدب الطفل » بعامة فى مجال اللغة ، تعبيرا ، وإبداعا ، وتوظيفا ، ووصلا لثقافة الحاضر : بثقافة الماضى .. وهذا أمر مهم لهؤلاء المعلمين .

٢ – وصل الأطفال ، بتراثهم عن طريق نصوص تحمل أفكار سليمة ، وصحيحة ، وجعل الطفل ، على علاقة مباشرة بتراثه الدينى ، والأدبى ، والاجتماعى ، والثقافى .

٣ – تربية الأطفال ، تربية إنسانية ، وثقافية ، وحضارية وهذه التربية لها خصائصها العقلية ، والوجدانية ، والنفسية ، والتى تجعلنا نؤكد فى أطفالنا صحتهم النفسية ، والوجدانية عن طريق ربطهم بتراثهم ، وبنصوصه ، ولغته ، الأمر الذى يجعل لهم مرجعا من الماضى ، وتراثا عظيما ينتمون إليه ، وحثهم دائما على التعامل ، مع مناطق العقلانية فى هذا التراث المجيد ، والوقوف بأنفسهم على أهم منجزاته فى ميدان النصوص ، وهذا فى حد ذاته ، مفخرة للأبناء يستحضرونه ، لدى تجارب ، وخبرات الحياة الممتدة .

٤ – تشجيع المعلمين ، والمربين ، والكتاب ، والأدباء ، على القيام ببحوث ، ودراسات علمية ، وتربوية ، وحضارية ، وثقافية ، تأسيسا على ما بيدهم من مرجعية نصية حافلة ، ومترعة بالإيجابيات التربوية والوجدانية . وأقصد بها التراث العربى الحافلَ بمصادر ، وأنواع تصلح « لأدب الطفل » والكتابة لعالم الطفل العربى ، وغير العربى ؛ لأنه تراث يتميز بخصوصيته ، وإنسانيته . وبرغم فارق الثقافة ، بين الماضى البعيد والحاضر القريب ، فإن الأدب العربى التراثى يظل ينبوعا صافيا للحكمة ، والتربية التى ينبغى أن نأخذ بها أبناءنا ، ونأخذ بها أبوتنا ..